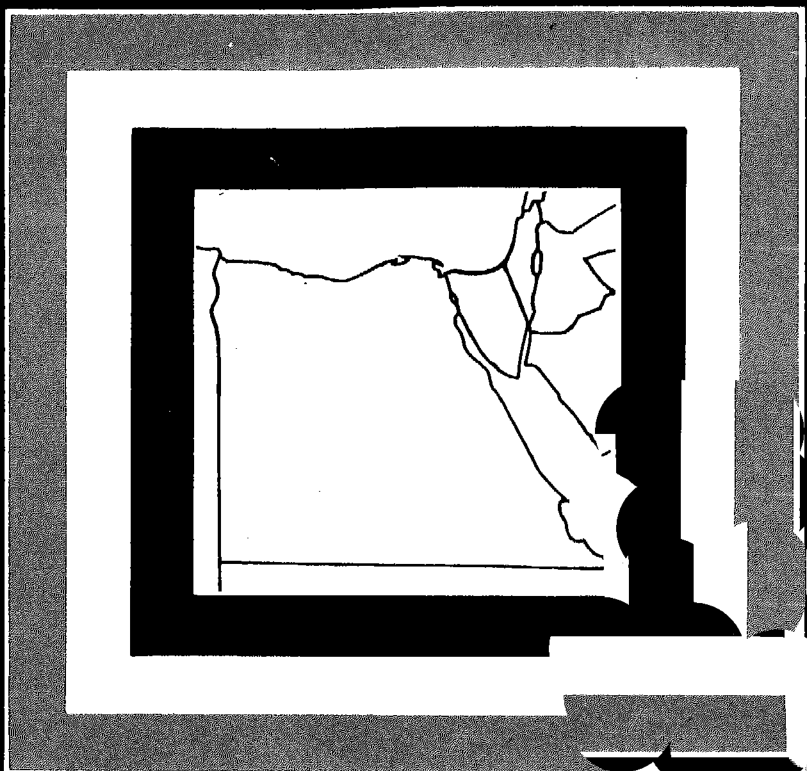
مكتبة مدبولي

تعريب مصر السياسي

د. محسن خضر



تعريب مصر السياسى

تعـــريب مصـــر السياســـى

د. محسن خضر

١٩٩٢

إهـــــداء

إلى نشوى محسن خضر

من جيلى المنكسر إلى جيلك الآتى..

ضاع عمرُنا وراء فتات الحلم: أمة عربية واحدة..

فهل يبرئ جيلك ساحتنا ويحقق الحلم؟

مقدمــة

ليست هذه الدراسة وقفا على ماضى مصر والوطن العربى فحسب، بل تؤمن هذه الدراسة أيضا بتداخل اللحظات الزمنية الثلاث: الماضية والحاضرة والمستقبلة، ومن هنا تتوجه لكى تصب فى نهر المستقبل.. وعندما نحاول التأصيل لتطور الوعى القومى مصر، وصعود احساسها بهويتها العربية على مستوى "الوعى" أو على مستوى "الممارسة"، فاننا نضع فى الاعتبار ان هذه القضية تتفتح على المستقبل وترقى الى مرتبة القضايا المصيرية التى تحدد أقدار الشعوب ومسيرتها. وسوف يجد القارئ تحديدا مبدئيا- عكسته بنية الدراسة- للمراحل الرئيسية فى تطور وعى مصر بهويتها القومية العربية وهى ماقبل ثورة ١٩٥٢، ومابعدها، كما يعد الأنقلاب الدراماتيكى المتمثل فى التسوية السلمية ومعاهدة الصلح فى كامب دفيد بمثابة حد موضعى ثان فى تأريخ هذا التطور..

ولا يصح فى لغه البحث العلمى أن تشير الى سبب بعينه، أو عامل مؤثر فى تفسير أحداث التحول الكبرى فى حياه الشعوب، بل تتداخل عوامل عدة فى صناعه هذه التحولات، وسوف يجد القارئ فى الفصل الخاص بنقد التفسير الكاريزمى لنمو الحركه القوميه العربيه، تطبيقا لهذه الرؤيه المركبه فيفهم التحولات الكبرى فى مسيره شعبنا. وليست عروبه مصر اختراعا ناصريا و ان ارتبطت باسهاماتها، كما ليست اغتيالا ساداتيا وإن تأثر بارتدادها. على أنه اخطر مايقال فى مسألة عروبة مصر انها ميراث تاريخى

معادلة للمستقبل فى نفس الوقت. فإذا أكدت هذه الدراسة على الأهميه القصوى لمناقشه قضية الهويه المصريه، فانها تكرس فى نفس الوقت الايمان بالدور القيادى لمصر، والمسئوليه القوميه لها تجاه تجاوز وضعيه التشرزم والكانتونات والقطريه ومحاوله وضع الأمه العربيه فى موقع ملائم فوق خريطه العالم ودور أقل مايقال عن فعاليته أنه يتجاوز ردود الأفعال إلى المبادرة أو تحجيم ضغوط الحسابات الكونية المتعاظمة.. وثمة معطيات مستجدة تعطى لهذه الدراسة أهميتها منها اعادة رسم خريطة العالم فى اتجاه مضاد لمصالح شعوب العالم الثالث، والتأرجح بين تعددية الأقطاب وهيمنة النظام الرأسمالى، والالتفاف حول مصالح القطيع المتخلف الضعيف. وكل هذه المستجدات وإن عملت على تآكل بعض القيمة الدولية للعالم النامى، الا انها أصبحت تفرض على هذا العالم تبنى لغة الخريطة الكونية: التجمعات الاقتصادية الكبرى والاعتماد الجماعى على الذات، بما يجاوز دور هذا العالم من مجرد الاستسلام لدور السوق لتصريف منتجات الاحتكارات الرأسمالية. ويتداخل التفسير الاقتصادى/ التكنولوجى للعالم الجديد مع عملية التوحيد القومى لأمتنا العربية، وهى مهمة وإن كانت مطلبا للأنتلجنسيا العربية وورقة من أوراق السلطات الحاكمة الا أنها ستتحول مع الضغط الخارجى والداخلى (المتمثل فى المشروع الاستيطانى الصهيونى) إلى مطلب شعبى سيزداد تأثيره وفعاليته.

وتعزز التحولات الحادثة فى الكيان الصهيونى، والمتمثلة فى الاستفادة من تغيرات الخريطة العالمية بذكاء، واستقطاب قيمة مضافة متمثلة فى استقطاب

وتعزز التحولات الحادثة فى الكيان الصهيونى، والمتمثلة فى الاستفادة من تغيرات الخريطة العالمية بذكاء، واستقطاب قيمة مضافة متمثلة فى استقطاب أفضل عناصر التكنوقراط السوفييت لقد أسهم جنود معروفون ومجهولون فى تعرف مصر على ذاتها وفهمها لكينونتها وتكشف هذه الدراسة عن بعضهم وتستشعر دور الغالبية المجهولة.

ومع إنها تغطى فترة زمنية طويلة نسبيا من ثورة الفلاح الشجاع أحمد عرابى ووصولا إلى افتتاحية التسعينيات الا انها حاولت اسلك مسارات عديدة منها السياسى والفكرى والاجتماعى والتربوى والعسكرى، كما حاولت أن تتعرف على القوانين الأساسية ذات الطبيعة الجيوسياسية فى المنطقة ومدى تأثيرها فى تحديد الأدوار المختلفة، كما اجتهدت فى تأصيل تطور الحركة القومية العربية للخروج من مأزق المثاليات "العفلقية" والحتميات "الحصرية" إلى فهم لنضال هذه الحركة يجعلها تتماس مع الحسابات الكونية من ناحية ومصالح الشعوب العربية من ناحية ثانية، والرؤية العقلانية من ناحية ثالثة..

وبقدر ما يستوعب كاتب هذه الدراسة الدور التاريخى لثورة يوليو ١٩٥٢ واسهاماتها فى المسيرة القومية لمصر، فإنها تحاول تجاوز سكونية هذا الانتماء الى حيوية الرؤية التاريخية الديناميكية.

والله الموفق

محسن خضر

القاهرة

(يوليو ١٩٩١)

الفهـــرس

" إن على من يريد أن يسود العالم أن يسود الشرق، ومن يريد أن يسود الشرق لابد أن يسود الشرق الأوسط، ومن يريد أن يسود الشرق الأوسط لابد أن يستولى على مصر. ولهذا فإن مصر مركز رئيسى من مراكز العالم".

- اللورد كرومر-

الباب الأول

عروبة مصر قبل ثورة ١٩٥٢

الثورة العرابية.. والوعى القومى العربى

يستدعى مرور ١١٠ سنوات على الثوة العرابية، واحتلال الانجليز لمصر بعد هزيمة العرابيين فى التل الكبير فتح هذه الحقبة من تاريخنا الحديث مجددا.. وبرغم عشرات الدراسات التى كتبت عن تلك الثورة وأحداثها المثيرة الا أن تتبع الوجه القومى لها مازال غائبا عن تلك الدراسات ولم ينل اهتمامه الكافى، فهل وعى الثوار العرابيون بالانتماء القومى لمصر وسط تركيزهم على الهوية الاقليمية المصرية من ناحية والرابطة الاسلامية من جهة أخرى؟

وهناك من يمد خط ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الى ثورة ١٨٨٢، ويوجد أوجها للشبه بين عرابى وعبد الناصر، وانكسار التل الكبير ليس بغريب عن انكسار سيناء فى حزيران عام ١٩٦٧ فى تصورهم.

ويذهب أحدهم متحاملا على ثورة عرابى الى أن تلك الثورة خطوة أولى كان المقصود بها فصل مصر عن الدولة العثمانية، مما سمح بالتالى بفصل الجزيرة والعراق والشام عن الدولة العثمانية، ثم إقامة اسرائيل التى لم تقم على انقاض الدولة العثمانية فقط ولكن على أنقاض الامبراطوريتين الانجليز والفرنسية ذاتها.(١)

ويذهب الامام محمد عبده فى مذكراته الى أن الثورة العرابية بدأت كحركة وطنية ولكنها انتهت الى فتنه طائفية.

كان عرابى يهدف بحركته العسكرية - وهى الاولى من نوعها عربيا- الى احلال الضباط الوطنيين محل الترك والشركس. وهذا التطلع- ضمن أسباب أخرى- أدى الى الاحتلال البريطانى(٢).

وقعت الثورة العرابية فى سياق تاريخى واجتماعى معين شكلت دولة محمد على المعلم الرئيسى فيه مؤرخا بداية مصر الحديثة، وذات علاقة بارزة بعلاقات مصر العربية ووعيها بانتمائها الى أمتها العربية "ان محاولة محمد على هذه، اول زعامة حركية قومية عربية مستقلة مبكرة"(٣).

سعى محمد على إلى الاستيلاء على الخلافة نفسها، وحلم هو وابنه ابراهيم بانشاء امبراطورية عربية، وكان الطموح الشخصى هو المحرك الأول لهما لانشاء هذه الامبراطورية، وكان هدف محمد على توسيع ملكه. أما ابراهيم فكان يعمل على خلق نهضة للعرب بالاضافة الى سعيه لانشاء مملكة، وبينما كانت عبقرية محمد على تقوم على تلك الفتوح التى تخلق الممالك كان ابراهيم يتحلى بالحكمة التى تحتفظ بتلك الممالك، فلم يخفف ما كان يرمى اليه من العمل على بعث الوعى القومى بين العرب، وخلق الشعور الذاتى للأمة العربية"(٤).

وقد أدى فشل محمد على فى اقامة الدولة العربية الى انعزال مصر الى حد كبير عن العالم العربى، فمنذ ان ركز اهتمامه بها، فانشغلت تلك باستكمال سياستها القومية الخاصة من بعد، ولكن دون أن يمنع ذلك حركة البعث العربى من النمو وطلائع الوعى العربى السياسى من الاختمار، وأن يعبر عن ذاته فى سلسلة من الانبثاقات تؤازرها مصر وهى تبنى صرحها الحديث.(٥).

وقد اختلفت الأراء حول دوافع ابراهيم العربية، فهناك من يعتقد أنه بينما لم تكن الفكرة العربية واردة بالنسبة لمحمد على، فان ذلك لم يمنع وجود مثل هذا التفكير لدى ابنه ابراهيم الذى كان يرى ان الفتوحات المصرية يجب أن تقف عند آخر نقطة يتحدث فيها الناس بالعربية.

ويفرق نوڤان فرقوط بين البعد القومى عند محمد على وابنه، فليس ثمة ما يفرق في الحقيقة بين الابن وأبية في الاهداف فقد كانت فكرة الوصول الى ملك وراثى تستحوذ على تفكيرهما، والفارق بينهما أن إبراهيم قد تأثرت شخصيته بظروف حياته فى الحروب والتنقل والاختلاط.(٦).

من الصعب الحديث عن عروبة مصر بمعزل عن الاتجاهين الاقليمى والاسلامى لأن هذه الاتجاهات الثلاثة التى هى أشبه بثلاثة أوجه لحقيقة واحدة تمازجت فى صياغة حقيقة مصر الواحدة "فلا يمكن فهم التاريخ المصرى بغير الوعى بأنه يتضمن ثلاث حلقات رئيسية هى الفرعونية والعربية والاسلامية"(٧) الا أن الوعى القومى بعروبة مصر قد تأخر فى مصر عن الوعى الوطنى والوعى الاسلامى لعدة عوامل فى العصر الحديث يجملها احد المؤرخين فى اختلاف الظروف التاريخية التى تكونت فيها مقومات القومية المصرية عن ظروف تكوين مقومات القومية العربية، والثانى غلبة الرابطة الاسلامية فى مصر على كل رابطة قومية، سواء اكانت مصرية أو عربية، منذ الفتح العربى لمصر إلى ولادة الحركة القومية، وثالثا النمو التاريخى المتميز لمصر منذ بداية القرن التاسع عشر.(٨).

ونلاحظ اختلاف الكتابات التاريخية المختلفة فى تحديد نقطة بداية لصدور

الوعى القومى فى مصر فمنها من ترجعها الى الحملة الفرنسية، ومنها من ترجعها الى ما قبل ذلك خلال العصر المملوكى او بعد ذلك الى حملات ابراهيم باشا العسكرية وهناك من يمد الخط الى الثورة العرابية، او فى وقت تال مع ظهور الكواكبى، ومنهم من يصل بهذا الخط الى فترة متقدمة وبالتحديد خلال الثلاثينيات بفضل حركة الاخوان المسلمين.(٩).

ويذهب عبد العظيم رمضان الى نفى الظهور المبكر للاتجاه القومى العربى قبل الحرب العالمية الأولى فى مصر "فيمكن القول فى اطمئنان تام ان الشعور القومى العربى فى مصر كان مجهولا تماما حتى نهاية الحرب العالميه الاولى[١٠]

ويقترب المؤرخ الكبير شفيق غربال فى رأية من الرأى السابق، من نفى النزعه القوميه من الوعى السياسى المصرى قبل بدايه القرن العشرين او اثناء الثورة العرابيه، "فعلى هذا النحو فى القرن التاسع عشر على الاخص، اتجه معظم العمل لبناء الاوطان العربيه المختلفه، وانصرفنا فى مصر على الاخص لشئون الحرية المصرية وللاستقلال المصرى"[١١]

الخطاب السياسى للثورة العرابية :

يكاد الخطاب السياسى العرابى أن يخلو من أشارة صريحة شافية الى وعى العرابين بانتمائهم ومسئولياتهم القومية العربية.

بل ان احمد عرابى ينفى عن حركتة توجها عربيا صرحيا، وان كنا نقرا هذا النفى بشئ من التحفظ نظرا للظروف التى قيل فيها .. فيقول عرابى فى مذكراته التى ارسلها الى "جرجى زيدان" لم يخطر ببالى اصلا الاقتداء

بالفاتحين، والمتغلبين كما ذكرتم، ولاتأليف دولة عربية، كما أرجف المرجفون، لانى أرى ذلك ضياعا للاسلام عن بكرة ابيه، وخروجا عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى اله"(١٢).

وسوف نؤجل مناقشة هذا التصريح بعض الشئ حتى نلم ببقية مواقف العرابيين الفكرية، فلم يحدث لرفاعة الطهطاوى فى أى وقت من الأوقات أن وصف مصر بأنها عربية "فحب الاوطان أبهى عنوان، وهو فضيلة جليلة-لاسيما اذا كان الموطن منبت العز والسعادة والفخار والمجد كديار مصر، فهى أعز الاوطان لبنيها ومستحقة لبنيها ومستحقة لبرها منهم بالسعى لبلوغ امانيها، بتحسين الاخلاق والآداب من جهتين عظيمتين : الاولى أنها أم لساكنيها، وبر الوالدين واجب- عقلا وشرعا- على كل انسان، والثانية انها ودودة بارة بهم، مثيرة للخيرات منتهجة للمبرات"(١٣).

إن الطهطاوى هو أول مفكر عربى اسلامى يميز بين (الوطن) و(الأمة) فيقول حول حقوق المواطنة :"فجميع مايجب على المؤمن لأخية المؤمن يجب على أعضاء الوطن فى حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من أخوة الوطنية فضلا عن الأخوة الدينية فيجب أدبيا لمن يجمعهم واحد التعاون فى تحسين الوطن وتكميل نظامة فيما يخص شرف الوطن وإعظامه وغناء ثروته"(١٤).

بل وكان التناقض بين فكرى الافغانى وعرابى واضحا، فالافغانى كان خلف الحركة الازهرية والتى تشمل المسلمين ولاتميز بين الاجناس، لايغفل تنمية الشعور الوطنى والشعور بالقومية، بينما عرابى المتدين فى غير تعصب حتى ليوصف بانه من (أحرار المسلمين) على حد قول بلنت، كان مصريا قحا

وكانت حركتة تعبر عن فئات عديدة حتى ان عديدا من الاجانب لم يترددوا لحظة أحداث الثورة أن يصفوها بأنها قومية.[١٥].

واذا استعرضنا الأفكار الرئيسية فى أول برنامج للحزب الوطنى، والذى صاغه محمد عبده وبلنت بحضور قادة الثورة الرئيسيين وذلك فى ١٨ ديسمبر ١٨٨١ والتى تتكون من ست نقاط فإنها تحدد أفكار الحزب الوطنى كالاتى :

١- الحفاظ على الروابط الودية بين الحكومة المصرية والبابا العالى والاعتراف بخلافة السلطان عبد الحميد للمسلمين.

٢- تأييد شرعية سلطان الجناب الخديوى الحالى.

٣- الاعتراف بفضل فرنسا وانجلترا على مصر، وبالديون الاجنبية المستحقة لهما، مع الايمان بالشعار القائل بأن (مصر للمصريين)، وانتقاد اعفاء الاجانب من الضرائب وعدم خضوعهم لقانون البلاد.

٤- الابتعاد عن الاخلاط الذين شأنهم إحداث القلاقل فى البلاد أما لمصلحة شخصية أو خدمة للاجانب الذين يسوؤهم استقلال مصر.

٥- الحزب الوطني حزب سياسى لادينى، مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذاهب أغلبيته مسلمون (أى رفض طائفية الحزب).

٦- اصلاح البلاد ماديا وأدبيا يكون بحفظ القوانين وتوسيع نطاق الحريات.

ولاتكشف النقاط الست الاساسية السابقة عن أى بعد ذى صبغة قومية عربية، وأن كان أقرب إلى "إعلان حقوق الانسان المصرى"[١٦].

بل وتكشف مطالب أحمد عرابى المختلفة التى تحدد فيها مطالب الجيش عن قصور مماثل فى الاحساس بالوعى القومى للمصريين..

فالمطالب التى قدمها عرابى بعد واقعة قصر النيل كانت تشكل مطالب عسكرية بحته وهى : صرف نقود بدل التعيينات، وأن تكون أجازة العسكريين مدفوعة الأجر، وركوب العسكريين بنصف أجر فى السكة الحديد، وصرف بدل نقدى للملابس وعدم جواز الترقى العسكرى بغير قانون، وسن قانون يشمل حالات الترقى والتقاعد والمكافآت والاجازات والمعاشات وزيادة مرتبات العسكريين، وارجاع أحمد بك عبد الغفار قائم مقام السوارى الذى فصله عثمان رفقى من الخدمة من غير محاكمة.(١٧).

وكذلك طلبات عرابى فى ميدان عابدين والتى قدمها فى مظاهرة ٩ سبتمبر ١٨٨١ وهى عزل رياض باشا، وتشكيل مجلس النواب، وزيادة عدد الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية(١٨).. فهى مطالب خاصة بالوضع الداخلى فى مصر وبأمنيات الشعب المصرى. ولاتكاد تخطئ صبغتها الوطنية الاقليمية.

وحتى اذا حللنا كتابات خطيب الثورة العرابية ولسان حالها الأول عبد الله النديم فاننا لانصل إلى أدلة قوية على وعى الثورة العرابية بمحيطها العربى، وبانتمائها القومى.. فاذا كان مضمون الثورة مصريا وطنيا، فأن صبغتها أسلامية واضحة، وفى ٢٠ يوليو ١٨٨٢، وفى الوقت الذى أعلن فيه الخديوى عصيان عرابى، ثار النديم وكتب مدافعا عن الثورة "ياأهل مصر" إن الانجليز يقولون مصر هى حصن البلاد العربية، من فتحها فقد أخذ بلاد

المسلمين، فهبوا للدفاع عن وطنكم، وتقووا واحفظوا حصن البلاد الاسلامية، وجاهدوا فى الله حق جهاده لتحفظوا هذا الدين العظيم وتدفعوا عدوا يريد ان يدخل بالخيل والرجل فى بلد الله، يريد أن يدخل الكعبة المشرفة، عن طريق بلادكم، وقد استعان على أغراضه بخديويكم الذى باع الأمة ارضاء للانجليز وجعل بلاد الاسلام مقابل حماية الانجليز له.(١٩)

وفى الكتاب الذى كتبه النديم فى سنوات اختفائه جزء عنوانه "تاريخ مصر هذا العصر" وهو كتاب (كان ويكون) الذى كتب فيه تاريخ الحركة الوطنية منذ عهد سعيد حتى محكمة زعماء الثورة العرابية من وجهة نظره.. يقول النديم :

"لاتقولوا هذا عربي وهذا تركي وهذا جركسي فكلمة الوطنية تجمعنا ووحدة الدين تنادى بيننا بالاتحاد ومنع التخاذل المضر بنا"(٢٠)

ولفظة (عربى) السابقة يقصد بها المواطن المصرى ذى الأصل العربى والذى يقيم فى مصر، أى أنه يتحدث عن رابطة الجنسية (تركى- مصرى- جركسى) ويحددها بكلمة (الوطنية) كما يتحدث عن رابطة (الدين) فى الروابط التى تربط أبناء الشعب ولكن الفقرة لاتشير الى أى قضايا عربية محددة وان كنا نرى تفسيرا لظهور الفكرة العربية التى ترددت فى خفوت أثناء الثورة ارهاصا آخر لتأكيد مفهوم القومية المصرية(٢١) حيث يذكر كرومر انه بعد حركة سبتمبر زاد الهمس عن قيام حركة سرية ترمى الى انشاء دولة عربية من مصر وسوريا، ويسأل بعد ذلك : فماذا ترى كان يصبح مصير آل عثمان(٢٢) بينما يشير بلنت الى أن فكرة اعلان الجمهورية فى مصر كانت تتضمن انضمام سوريا اليها ثم الحجاز.(٢٣)

المؤيدون والمعارضون بوجود وعي قومي عربي للثورة العرابية :

هل اتسمت الثورة العرابية بوعي قومي عروبي واضح؟

يكاد التحليل المفصل لوقائع أحداث الثورة، ووثائقها، وتصريحات شخوصها ان يكتشف عن ضعف الاحساس القومي عند زعماء الثورة، وغياب الوعي بعروبة مصر أو انتمائها العربي، وفي المقابل فإن النزعة الاسلامية كانت هي السمة الغالبة على مشاعر العرابيين، مع إن مضمون الثورة كان مصريا خالصا، تدور حول مطالب وحقوق مصرية لاتكاد تتجاوز حدود مصر.. "ويلاحظ ان الروح التى كانت تسود مصر إبان الثورة العرابية هى روح الجامعة الاسلامية"(٢٤)

فليس هناك تناقض فى هذا الصدد بين النزعتين الوطنية والاسلامية.. فقد ظلت النزعة الاسلامية واضحة فى الثورة العرابية نفسها، وهى ثورة وطنية مصرية صميمة، فكان العرابى يتهم الخديو بأنه يطعن الاسلام فى ظهره وكان ينادى باعتبار الخديو منحرفا عن الشرع لانه يخالف قول الآية الكريمة "ياايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء"، بعضهم أولياء بعض، ومن يولهم منكم فانه منهم" وكانت صيحة الاستنفار للجهاد بين الشعب المصرى أثناء الثورة العرابية "جاى يامسلمين جاى" وكان الكثيرون من دعاة الثورة وخطبائها وعلى رأسهم عبد الله النديم ينطلقون من منطلق اسلامى، وكان الثوار العرابيون يسمون بالهلالية يقومون بالجهاد ضد حملة الصليب، وكان عرابى مع اعتزاوه الكبير بمصريته واصله الفلاحى متأثرا بفكرة الجامعة الاسلامية ومقرا بحق السلطان العثمانى فى مصر(٢٥).

ويشير ساطع الحصرى الى ان التفكير السياسى فى تلك الفترة فى مصر كان يتخبط بين نوازع الفرعونية وجوانب الوحدة الاسلامية وخيالات الرابطة الشرقية، واغراءات الانعزالية المصرية، وقلما يلتفت الى أصوات القومية العربية.(٢٦)

ونلاحظ ان الفكر القومى فى الشام والعراق فى ذلك الوقت كان نشطا بل ومستعرا فى مواضع كثيرة، وقد سبقت الشام فمصر فى احتضانها للفكرة القومية العربية لأسباب عدة معروفة، أما مصر فكان انشغالها بقضية الاستقلال من ناحية، ولنضج الظاهرة القومية المصرية بها تحول دون تعمق الوعى القومى العربى بها..

ومع ذلك نجد بين المؤيدين من يشايع وجود نزعة قومية عربية للثورة العرابية فيعتبر احمد عبد المعطى حجازى انه من بين المرات التى ازدهر فيها الوعى العربى فى مصر مرحلة ازدهار المدن المصرية فى عهد المماليك، ومن سنوات حكم محمد على، وفى ثورة عرابى، ولدى بعض الزعماء والتيارات الاسلامية والفكرية فى ثورة ١٩ واخيرا فى عهد عبد الناصر(٢٧) فالثورة العرابية- فى رأى حجازى- كانت ذات سمة عربية واضحة.(٢٨)

على ان اهم وثيقة تعزز هذا الجانب هى البرقية التى أرسلها خديو مصر الى ثابت باشا بتاريخ ١٨٨٢/٤/٢٧ بشأن انتشار الروح القومية فى مصر والهتاف بحياة العرب ويقول فيها "يستبان بصورة محققة من ملاقاة عرابى بك وامراء الالايات الاخرى مع مندوب حليم باشا الموجود هنا على الدوام ومن براهين أخرى توجد مخابرات بين عرابى ورفاقة مع الباشا المذكور.

لقد صار إخراج أكثر الضباط من الجيش الذين هم من الترك والشركس والأجناس الأخرى والباقون على وشك الخروج، ومسألة القومية تنتشر يوما فيوما حتى انه فى الاجتماع الكبير الذى عقد فى مكان ما لتهنئة مجلس النواب على توفيقة هتف القوم قائلين (يعيش العرب) وتتضح أهمية المسألة من هذه الأحوال..(٢٩)

كما تكشف برقية توفيق الى ثابت باشا بتاريخ ١٨٨٢/١٢/١٤ توضح مسعى عرابى الى ادماج أهالى الحجاز والشام وطرابلس الغرب ضمن اتحاد عربى، وهى ما يمكن ان نفهمه على انه اتهام من الخديو لعرابى غير حقيقى، فهو يميل إلى تهييج الآستانة عن طريق هذا الاتهام، لأن عرابى- نفسه- وآخرين من رفاقة نفوا هذا الادعاء وان كانت هذه البرقية هى أخطر وثيقة تتناول موقف الثورة العرابية من المسألة العربية.. يقول توفيق "ان متانة دينى وقوة محبتى للأمة.. وصدق اخلاصى للذات السلطانية واجبة على طبعا وشرعا. كما أن رغبتى فى دوام واستمرار الاتحاد الذى هو سبب قوة الخلافة الكبرى والممالك والاقطار عن الفوائض المحتمة على عبوديتى فى الدرجة الأولى. اذن فليس لى غرض آخر إلا تمنى بدوام ارتباط مصر ارتباط شديد بمركز الخلافة السنية وبذل المساعى والقدرة فى سبيل ذلك، لانه فى حالة أصابة هذا الارتباط من مصر بالدولة الحلية والعياذ بالله التزعزع فى بنيان السلطنة.

واستيلاء إحدى الدول على مصر فى مدة قليلة ولاشك فى ذلك ولهذا يقتضى على من يريدون دوام سيطرة الدولة العليا وشوكتها وبسعادة حالهما

العمل على دوام هذا الارتباط واعتباره فرض عين وانى ادرك ذلك والان ابادر الى عرض الحقيقة على ولى النعم على الوجة الاتى :

ان قوة ارتباط مصر بمركز الخلافة يتوقف على تأييد نفوذ العنصر التركى بمصر أكثر عدده، والقومية والجنسية اللتان ظهرتا بمصر الان مخالفتين تماما لهذا المبدأ، فغرضهم الوحدة العربية ويعمل رئيس هذه الطائفة على تقوية هذه الروح ليلا ونهارا ويسعى جاهدا إلى افناء الاجناس التى هى من الترك والموجودين بمصر التركى والشركسى والارناؤوط والكرد وغيرهم. كما أنه يسعى الى اندماج أهل الحجاز والشام وطرابلس الغرب ضمن الاتحاد العربى وهاهى لقاءاته الى الحجازية ويسطاء العقول مدعيا انه من الاشراف، انه يتلقى الأوامر والتعليمات من صاحب الرسالة"(٣٠).

ويذهب رأى آخر الى أبعد من ذلك عندما يعتبر أن عرابى ورفاقة عندما اتيحت لهم الفرصة رأوا أن مجرد قيام حكم وطنى باظهار حقيقة مصر العربية لأنه لابد لهذا الحكم وهو يستجمع قواه لمقاومة القوى العادية والمطبقة على مصر من أن يدرك بأن قوة مصر ليست فى الانطواء على نفسها وليست انعزالها وانما فى تلك الروابط التى تصلها بالعالم كما أنها تنبع من احساسها بدورها فى هذا العالم العربى. ولذلك فهى ثورة عربية أو مصرية عربية بخلاف ماذهب اليه بعض الانعزاليين الذين يحلوا لهم ان يربطوا بينها وبين فكرة القومية المصرية التى القيت بذورها فى ظل عصر محمد على واسرته بسبب بناء الدولة الحديثة ولأنه كان صاحب الفضل فى توحيد السوق الداخلى وازالة الحواجز التى تعوق النشاط الاقتصادى الحديث(٣١) واستند صاحب هذا الرأى الذى يؤكد على وجود وعى واضح للثورة العرابية – ان

المشاعر الدينية التي عرفت عنها وتذهب عنها الصفة القومية العربية او تقلل من شأنها بل على العكس تقويها لأن الإسلام هو الذي حمى العروبة، وحصنها للوقوف في وجه الغزو الغربي الحديث فلسنا نعرف قومية تحققت بلا دين، بل ثمة قوميات كان الدين عاملا هاما من عوامل نشأتها، كذلك لايمكن أن تكون فكرة القومية العربية هي تلك التي تمخضت عنها العلاقات في بعض أنحاء الشام بالأتراك فدفعتها باتجاه التجرد من الدين.(٣٢).

على اننا نجد ان الرأى السابق يفتقد الأدلة الواضحة على ماذهب اليه، فمن الجلى ان الثورة العرابية كانت ثورة مصرية بحته ذات سمة اسلامية، وعرابى نفسه – كما تقدم– نفى عن نفسه النزعة العربية وكأنها تهمة يدفعها.

ويؤكد رأى صلاح زكى رأى آخر يرى ان الثورة العرابية رغم طابعها المصرى الوطنى البارز الا انها لم تخل من معالم للفكرة العربية، ولايمنع التيار الاسلامى الذى كان واضحا فيها من وجود معالم للفكرة العربية فى الثورةالعرابية.(٣٣)

ومن الاسانيد التى يوردها صاحب هذا الرأى أن المعلومات التى جمعها المستشرق الاوروبى (دوفيريه) عن أحمد عرابى تفيد بأنه كان على صلة قوية بالحركة السنوسية فى ليبيا وكانت تتميز بالطابع العربى. وأن الطابع العربى فى الثورة العرابية كان يختلط بطابع اسلامى لايتعارض مع العروبة وهو مايعكس طبيعة الفكرة العربية فى تلك الفترة حيث كانت مختلطة بالفكرة الإسلامية وهذا لايتناقض مع الفكرة العربية السائدة فى العالم العربى فى تلك الفترة والتى لم تصل الى حد التبلور فى شكلها القومى الصريح(٣٤).

ويؤكد اللورد كرومر الاتجاه القائل بوجود نزعة عربية للثورة العرابية،

معتقدا بوجود اشارات على قيام حركة سرية ترمى الى إنشاء دولة عربية من مصروسوريا.[٣٥]

وربما يكون صحيحا ان محمود سامى البارودى قد ترسم عند بداية الثورة الى قلب مصر الى جمهورية محايدة مثل سويسرا، وعندئذ تنضم اليها سوريا والحجاز.[٣٦] وقد تسبب ذلك الاتجاه فى وقوع الخلاف بين الشيخ محمد عبده والعرابيين، وهو خلاف فى الأسلوب لا فى الهدف، ففى الوقت الذى أعرب عن رغبته فى إقامه جمهورية فى مصر فى خطاب أرسله للمستر بلانت يقول فيه "خلع اسماعيل فزال عنا عبء ثقيل لو كنا قد فعلنا ذلك بانفسنا لكنا تخلصنا من أسرة محمد على بأجمعها، ولم يكن فيها احد جدير بالحكم سوى سعيد، وكنا عندئذ أعلنا الجمهورية".[٣٧]

وهكذا انطوت الثورة العرابية على ذاتها الوطنية، وكان رمز الوطنية المصرية أحمد عرابى، وتبنت الثورة التى قادها شعار "مصر للمصريين" وقد اعتبر الخطبة التى ألقاها محمد سعيد باشا عن (ظلم الغزاة ومنهم العرب) للشعب المصرى وعزمه ان يجعلة صالحا لخدمه بلاده) أول حجر اساس فى نظام مصر للمصريين. ولكن هذه الوطنية والقومية المصرية لم تكن خالصة، بل كانت مختلطة بالدين نحو القتال، كان دينيا. وكان الازهر وعطاؤه مشاعل الثورة بالاضافة الى ان أحمد عرابى كان يدين بالولاء للخلافة الاسلامية فى تركيا. ومعنى ذلك ان القومية لم تصل فى عهد عرابى الى قومية علمانية.[٣٨]

وعلى الرغم من محاولة أنيس صايغ الهامة من تحليل التاريخ المصرى على ضوء الوعى العربى القومى الا انه لم يستطع أن يغفل الطابع المصرى

العميق للثورة العرابية، ويلاحظ ان عبارة "الله ينصرك ياعرابى" كانت تجرى على لسان الشعب، وبعد الهزيمة، ارتفع الزعيم التعيس بين جنده الفلاحين الى ارقى مرتبة فى الامبراطورية العثمانية حيث أصبح يسمى (افندينا عرابى). ويشهد محمد عبده من سجنه فى رسالة الى براود لى يقول فيها "هل يقدر أحد أن يشك فى كون جهادنا وطنيا صرفا. بعد أن أزره رجال من جميع الأجناس والاديان، فكان يتألق المسلمون والاقباط والاسرائيليون لنجدته بحماس غريب وبكل ما آتوه من حول وقوة لاعتقادهم انها حرب بين المصريين والانجليز.. وحينئذ اصبحت وسلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من اتباع عرابى.[٢٩]

وينتهى أنيس صايغ إلى النتيجة التالية "كل ذلك يعنى أن العروبة لم تحتل أى موقع فى ثورة عرابى باشا. إن عرابى يردد عبارات : الامة المصرية - و(الوطن المصرى) و(القومية المصرية) عشرات المرات فى مذكراته المنشورة دون أدنى ذكر للعروبة"

ويركز محمد انيس على تحليل العناصر الأساسية المكونة للحركة الثورية التى مثلتها العرابية من منظور مادى فيرى ان هذه القوة الجديدة تتألف من جناحين : جناح اقتصادى يتمثل فى طبقة الملاك الزراعيين التى اصبحت فى أواخر القرن التاسع عشر طبقة واضحة المعالم وذات مصلحة رئيسية فى تثبيت الملكية الفردية والمشاركة فى الحكم، ثم هناك جناح فكرى او جناح المثقفين الجدد الذى تحالف مع هذه الطبقة وباكتمال التحالف بين الملاك

والزراعيين والمثقفين الجدد يدخل المجتمع المصرى فى مرحلة الثورة العرابية(٤٠).

ويحسم حامد ربيع مسالة الوعى القومى المصرى للثورة العرابية بقولة "لم تطرح الثورة العرابية بصورة صريحة لمفهوم القومية المصرية ولاعلاقة الانتماء المصرى بما يمكن ان يسمى الوحدة العربية" ويؤكد نفس اللهجة أنيس صايغ أيضا.(٤١)

(١) السيد فهمي الشناوى : الثورة العرابية والأصابع الصهيونية، مجلة الدوحة يوليو ١٩٨٤.

(٢) محمد جابر الأنصارى : تحولات الفكر والسياسية فى الشرق العربى (١٩٣٠-١٩٧٠)، عالم المعرفة (٩٣٥)، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والاداب، الكويت، نوفمبر ١٩٨٠، ص ١٨٥.

(٣) فاروق يوسف : مصر والعالم العربى، دراسات فى الاجتماع السياسى، مكتبة عين شمس، القاهرة ١٩٧٩، ص ١٢.

(٤) عبد العزيز الرفاعى : أصول الوعى القومى العربى، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة ١٩٦٠، ص ٤٨.

(٥) عواطف عبد الرحمن : مصر العربية، سنوات المخاض، الصراع بين الفرعونية والعروبة والاسلامية، مجلة آفاق عربية، شباط ١٩٧٦، ص ١٢.

(٦) نوفان فرقوط : تطور الفكرة العربية فى مر ١٨٠٥- ١٩٣٦، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٢، ص ١٠٣.

(٧) السيد يس : الشخصية العربية، النسق الرئيسى والأنساق الفرعية (عروبة مصر وحوار السبعينيات) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام القاهرة ١٩٧٨ ص ٤٢.

(٨) عبد العظيم رمضان : الفكر الثورى فى مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٨٣، ص ٥٩.

(٩) راجع استعراضنا لهذه الآراء المختلفة فى :

محسن خضر: الاتجاه القومى العربى فى مصر وأثرة على التعليم من ١٩٥٢– ١٩٨١، رسالة ماجيستير، كلية تربية عين شمس، القاهرة ١٩٨٦ (الفصل الثانى).

(١٠) عبد العظيم رمضان : الفكر الثورى فى مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، ص ٥٩.

(١١) محمد شفيق غربال : العوامل التاريخية فى بناء القومية العربية، محاضرات برنامج المدرسين المعارين للاقطار العربية، وزارة التربية، ١٩٦٠.

(١٢) أبو خلدون الحصرى : المختارات، ص ٣٦٣.

(١٣) أنور عبد الملك : نهضة مصر (١٨٠٥– ١٨٩٢)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣، ص ٢٤٥.

(١٤) رفاعة رافع الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية، ص ١٨٧.

(١٥) مصطفى عبد الغنى : المؤثرات الفكرية فى الثورة العرابية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٣٩.

(١٦) أنظر تفصيل هذا البرنامج فى :

أنور عبد الملك : نهضة مصر، مرجع سابق، ص ٤٦٣– ٤٦٥.

(١٧) راجع النص الكامل لهذه الطلبات فى :

عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية، دراسات قومية، العدد الثالث، مركز النيل للاعلام، القاهرة ١٩٧٩، ص ٤٦، ٤٧.

(١٨) انظر تفاصيل هذه المظاهرة في المصدر السابق الصفحات ٦٢– ١٩٦٩.

(١٩) عبد الله النديم فى (أنور عبد الملك : نهضة مصر ص ٤٩٥).

(٢٠) محمد احمد خلف الله : النديم ومذاكرته، ص ١٢٤.

(٢١) مصطفى عبد الغنى: المؤثرات الفكرية فى الثورة العرابية، مرجع سابق، ص١٤٢.

(٢٢) كرومر: الثورة العرابية، ص ٧٠.

(٢٣) الفريد بلنت : التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر، ص ٤٥٣.

(٢٤) سعيد اسماعيل على : الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية لحركة الفكر التربوى فى مصر ١٨٨٢ - ١٩٢٣، رسالة دكتوراه، كلية التربية عين شمس القاهرة ١٨٦٩، ص٥٢.

(٢٥) محمد العزب موسى : وحدة تاريخ مصر، المؤسسة العربية للدراسات للنشر، بيروت ١٩٧٢، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢٦) أبو خلدون ساطع الحصرى : أبحاث مختارة فى القومية العربية، دار المعارف القاهرة ١٩٦٤، ص ٢٠٠.

(٢٧) أحمد عبد المعطى حجازى : رؤية حضارية طبقية لعروبة مصر، دار الآداب، بيروت ١٩٧٩، ص ٧١.

(٢٨) المرجع السابق، ص ١٢.

(٢٩) دار الوثائق : المحفظة ١١٦ أبحاث- ملف ١٦٣ عابدين (ملف ثابت باشا).

(٣٠) المرجع السابق.

(٣١) صلاح زكى : مصر والمسألة القومية (بحث فى عروبة مصر)، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٨٣، ص ٥٣.

(٣٢) المصدر السابق، ص ٥٤.

(٣٣) فؤاد المرسى خاطر: حول الفكرة العربية فى مصر، (مصر النهضة)، مركز وثائق تاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥ ص ٥٠.

(٣٤) المرجع السابق، ص ٥٣.

(٣٥) على الحديدى : عبد الله النديم : خطيب الوطنية، المؤسسة العربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة مصر ١٩٦١، ص ٢٠٤.

(٣٦) ارسل البارودى إلى بلنت بريطانيا خطابا يقول فيه "كنا نرمى منذ بداية حركتنا الى، قلب جمهورية مثل سويسرا ولكنا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لأنهم كانوا يتأخرين عن زمنهم، ومع ذلك فسنجتهد فى جعل مصر جمهورية قبل أن نموت" انظر: محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر، جـ ١، ص ١٥٩.

Blunt, Wilfrid scawen: secret histor/ of the British(٣٧)
Occupaticn oF Egypt London1907, p345

(٣٨) نبيه بيومى عبد الله : تطور الفكرة القومية العربية فى مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥، ص ٥٥.

(٣٩) أنيس صايغ : الفكرة العربية فى مصر، مرجع سابق.

(٤٠) محمد أنيس : الحركة الوطنية فى مواجهة الاستعمار الاوروبى، الثورة العرابية للكاتب، العدد ٦٠، القاهرة ١٩٦٦.

(٤١) حامد ربيع : التحدى الصهيونى وارداة التكامل القومى، دار الموقف العربى، القاهرة ١٩٧٨، ص ٢٤٢.

ساطع الحصرى وجهوده فى نشر الدعوة القومية العربية فى مصر

"ولا أكون مغاليا اذا قلت : انى أهتم بمصر أكثر مما أهتم بسورية والعراق، لأننى أعرف أن مصر- بحسب أوضاعها العامة- أصبحت (القدوة المؤثرة) على العالم العربي بأجمعه. فأعتقد لذلك أن كل تقدم يحصل فى مصر لايخلو من النفع لسائر البلاد العربية، كما أن كل نقص يعيش فى مصر لايخلو من ضرر العدوى الى سائر البلاد العربية، فكل مدة تسدى الى مصر كأنما أسديت إلى سائر البلاد العربية بأجمعها.

(ساطع الحصرى- ١٩٣٦)

ربما كانت المرحلة المصرية فى حياة الفكر القومي الكبير ساطع الحصرى هى أهم المراحل بالنسبة للطرفين : ساطع الحصرى والدعوة القومية فى مصر..

وإذا كانت جهود ساطع فى المشرق العربى لا تنكر بخصوص نشر الدعوة القومية والدعوة الى الوحدة العربية وتأصيل الفكرة، الا أن الأهمية النسبية لدعوته فى مصر تكمن فى أن نشوء ونمو الاتجاه القومى العربى فى الشام والعراق كان أسبق منه فى مصر.

أهملت ثورة ١٩١٩ فى مصر الفكرة العربية، وخلى دستور ١٩٢٣ من أى

أشارة الى انتماء مصر العربى مقابل التأكيد على مفهوم الأمة المصرية، كان ذلك كله معبرا عن غلبة القومية المصرية على الخطاب السياسى المصرى وربما كان انشغال مصر بقضيتها الوطنية من العوامل الأساسية التى أعاقت نمو الفكرة القومية العربية فى مصر.

كانت حركة الاخوان المسلمين من أبرز حاضنات الفكرة العربية فى مصر فى الثلاثينيات، ولكنها اختلطت بالفكرة الاسلامية عندهم، ولكن يبدو أن قضية فلسطين كانت البداية السياسية لاكتشاف مصر لعروبتها. ويذهب أنيس صايغ الى أن "قضية فلسطين لعبت الدور الاكبر فى المجرى التاريخى لتطور الفكرة العربية فى مصر" (١).

ومن بين العوامل التى أثرت على المناخ الفكرى المرحب بالدعوة القومية العربية فى مصر الثلاثينيات : الزيارات الرسمية للساسة والمثقفين المصريين الى البلاد العربية، ونمو الرأسمالية المصرية الصناعية والتجارية، وإنشاء طلعت حرب لبنك مصر والذى أدى الى انفتاح الاقتصاد المصرى على السوق العربية وادراك أهميته، كذلك تنشيط السياحة بين مصر والأقطار العربية وتحسين المواصلات بينهما بالاضافة الى التعاون الثقافى والتعليمى المتبادل..

وأكمل تلك العوامل الدور الذى لعبه ساطع الحصرى فى انضاج الفكرة العربية فى مصر، فكان معبرا عن الجو الفكرى الذى ساد الشرق العربى منذ نهاية القرن الماضى، ويسعى من خلال نظرية عامة للقومية الى تحديد مفهوم القومية العربية..

عول الحصرى على الدور العربى لمصر وقيادتها للحركة القومية أهمية كبرى ومرجعه فى ذلك الى أنه قد "زودت الطبيعة مصر لكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى انهاض القومية العربية"(٢).

لقد رأى الحصرى مسيرة مصر نحو أداء دورها الطبيعى والقيادى فى النضال القومى وكأنه حتمية تاريخية تستند على عوامل تطورية حقيقية فيقول :"إن العلا التاريخية التى تربط مصر بسائر الأقطار العربية لهى أقوى وأعمق وأطول من العلاقات التاريخية التى تربط الولايات الفرنسية بعضها ببعض"(٣).

وكان طبيعيا أن تؤدى أفكار ساطع الحصرى حول عروبة مصر، وتطورها القومى فى المستقبل تجاه القيام بدورها القومى الطبيعى الى الاصطدام بأبرز رموز اصحاب دعاوى القومية المصرية والدعوة الاسلامية، فدخل فى مساجلات فكرية مع بعض هذه الرموز ومنهم طه حسين ود. هيكل وسلامة موسى وحسين مؤنس وأحمد لطفى السيد وأحمد أمين وأمين الخولى وشيخ الأزهر.. وحاول فى خلال مساجلاته معهم أن يؤكد على انتماء مصر الطبيعى الى الأمة العربية، وأن خيرها فى الاعتراف بتلك الصلة وتحمل مسئولياتها الطبيعية تجاه منطقتها العربية.

لقد انسجمت مساجلاته معهم مع قناعاته الفكرية، فقد آمن بأهمية الوحدة العربية ايمانا عميقا، وحارب من أجل تحقيقها بلا هوادة، وكان يعتقد أن

الوحدة العربية ضرورية لتماسك العرب وتقدمهم، ولم يفقد أيمانه بإمكانية تحقيقها في المستقبل ومن ثم اعتقد أن أول مايجب عمله هو إيقاظ الروح القومي وبث الإيمان في نفوس العرب بالقومية العربية ووحدة العرب. مصر هي الأخرى كانت تشد صراعا فكريا حادا بحثا عن هويتها الفكرية، وأهم الاتجاهات الفكرية التي طرحت في مجال محاولات تأصيل الهوية المصرية، الاتجاه القومي المصري، والاتجاه الاسلامي، والاتجاه الاشتراكي، والاتجاه التغريبي، وبصورة أضعف الاتجاه العربي، كما يمكننا أن تضمن الاتجاه القومي المصري اتجاهات فرعية ظهرت داخله كالاتجاه الفرعوني والاتجاه الافريقي.

ركز الحصري في دعوته في مصر على المدخل الثقافي والوحدة الثقافية – لا السياسية– بداية لتحقيق الهدف القومي، وركز على دور الثقافة والتعليم لتحقيق هذا المدخل للقومية العربية "فقد اختار الحصري طريق الدعوة للوحدة الثقافية العربية لتحقيق حلم الأمة العربية وذلك باحداث التقاوب بين نظم الثقافة والتعليم في البلاد العربية المختلفة منذ وقت مبكر"(٤) هو نفسه كان دد جملة شهيرة بخصوص التعليم وهي "أعطوني مقاليد التعليم وأنا ليكم وطنا موحدا".

وسوف نحاول أن نلقي الضوء على أهم ملامح المساجلات الفكرية التي ضها ساطع الحصري مع المثقفين المصريين من أجل ابراز عروبة مصر القومية العربية في مصر.

طه حسين :

اسـتنكر المصـرى الآراء التى أدلى بهـا طه حـسين فى حـديث لمجلة "المشكوف" البيروتية عام ١٩٣٨ . فقد ذكر طه حسين فى حديثة "أن المصرى مصرى قبل كل شئ، فهو لن يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف" . وعلل ذلك بقوله "أن الفرعونية متأصلة فى نفوس المصريين وأنها ستبقى كذلك، بل يجب أن تبقى وتقوى، ولانصدق ما يقوله بعض المصريين من أنهم يعملون للعروبة، والفرعونية متأصلة فى نفوسهم"(٥).

واستبعد طه حسين الوحدة السياسية بين العرب، واستبدلها بتوحيد نظم وبرامج التعليم وتشجيع التبادل الثقافى بينها ..

وهذه الآراء من طه حسين منسجمة مع موقفة الفكرى من مسألة القومية المصرية وحيث تعد مصر فى نظرة قومية متميزة مستقلة بذاتها ..

ففى كتابة الشهير "مستقبل الثقافة فى مصر" يذهب الى أن "الثقافة المصرية مهما تكن ضعيفة ومهما تكن ناقصة ومهما تكن محتاجة الى التقوية والتنمية والإصلاح فهى موجودة ما فى ذلك وما ينبغى أن يكون فى ذلك شك. هى موجودة متميزة بخصالها وأوصافها التى تنفرد بها من غيرها من الثقافات. وأول هذه الصفات المميزة لثقافتنا المصريه أنها تقوم على وحدتنا الوطنية وتتصل اتصالا قوميا عميقا بنفوسنا المصرية القديمة. أيضا تتصل بوجودنا المصرى فى حاضرة وماضيه. ومن حيث أنه تصور آمالنا ومثلنا العليا فى الحياة فهى تتصل بمستقبلنا أيضا بل هى ترفعنا الى هذا المستقبل رفعا. ولك ان تنتظر فى أى لون من ألوان العلم الأدب والفن التى

تدرس فى مصر والتى ينتج فيها العلماء والأدباء والفنانون المصريون. فسترى أنها مطبوعة بالطابع المصرى القوى الذى لم يستطع الزمان أن يمحوه أو يعفى آثاره "إلى أن يقول : "ثم ستراها قد اتخذت اللغة العربية المصرية لها أداة مرنه أنيقة رشيقة لاتنبو عن الذوق ولاتتجافى عن الطبع ولاتكلف قارئها مشقة وجهدا . ولاتقل إن اللغة العربية مشتركة بين مصر وغيرها من البلاد العربية فهذا حق ولكن لمصر مذهبها الخاص فى التعبير، كما أن لها مذهبها الخاص فى التفكير. والبلاد العربية الأخرى تتأثر بمصر ولعلها تتنافس فى تأثر مصر فى تفكيرها وتعبيرها . وإذا أردت أن تحلل الثقافة المصرية الى عناصرها الأولى فهذه العناصر واضحة : هى التراث المصرى الفنى القديم وهى التراث العربى الاسلامى وهى ما كسبته مصر وتكسبه كل يوم من خير ما أثمرت الحياة الأوروبية الحديثة. هى هذه العناصر المختلفة المتناقضة فيما بينها أشد الاختلاف والتناقض. فى مصر وثقافة مصرية انسانية، فيها شخصية مصر القديمة الهادئة، ومنها شخصية مصر الباقية الخالدة"(٦)

ومع ذلك، فلم يستطع طه حسين فى نفس الكتاب أن يخفى حقيقة الروابط الوثيقة بين مصر والعرب، فكيتب يقول فى مقدمة الكتاب :

"ليس من شك فى أن الصلة بين المصريين القدماء، وبين هذه الأقطار من الشرق القريب كانت قوية مستمرة منظمة الى حد بعيد وكانت بالغة الاثر فى الحياة العقلية السياسية والاقتصادية لهذه البلاد كلها .. فأساطير المصريين تنبئنا بأن آلهتهم قد تجاوز الحدود الصمرية وذهبوا يحضرون الناس فى

أقطار الشرق هذه. وتاريخ المصريين ينبئنا بأن ملوك مصر قد بسطوا سلطانهم على هذه الاقطار أحيانا، كما يحدثنا بأن مصر قد تعرضت لبعض الخطر السياسي في هذه البلاد(٧)، وإذا كان هذا هو مجمل الموقف الفكرى لطه حسين من مسألة عروبة مصر، فكيف فند الحصرى آراء طه حسين السابقة..؟

نفى الحصرى كون الوحدة العربية تتطلب من المصريين التنازل عن المصرية لأن دعوة المصريين الى الاتحاد مع سائر الأقطار العربية لا تتضمن- بوجه من الوجوه- حثهم على التنازل عن المصرية، بل إن دعاة العروبة يطلبون إلى المصريون أن يضيفوا الى شعورهم المصرى الخاص شعورا عربيا عاما، فالفكرة العربية التى تعمل فى القرن العشرين- للأجيال القادمة - لايمكن أنت تتعارض مع آثار بقيت ميراثا من ماض سحيق يرجع الى خمسة آلاف سنة، وأنه لم يطلب هدم الاهرام وتناسى الاثار لأجل تحقيق الوحدة العربية، فالأهرام لم تمنع مصر من الاتحاد مع سائر الأقطار العربية اتحادا تاما فى ساحة اللغة، تساءل : فهل يمكن أن تحول دون اتحادها مع تلك الأقطار فى ساحة السياسة أيضا؟

وردا على ادعاء طه حسين بأن "الأكثرية الساحقة من المصريين لا تمت بصلة الى الدم العربي، بل تتصل مباشرة بالمصريون القدماء"، متسائلا بدوره: هل علمتم بوجود أمة على الأرض انحدرت من أصل واحد تماما؟ وهل تستطيعون أن تذكروا لى أمة واحدة ترتبط بروابط الدم - حقيقة؟

وعن تقليل طه حسين من وزن اللغة كركيزة للوحدة بقوله "لاتنخدعوا، لو

كان للغة وزن فى تقرير مصير الأمم، لما كانت بلجيكا وسويسرا ولا أمريكا ولا البرازيل".

ففند الحصرى موقع كل دولة من الدول الأربع ليثبت على العكس مما ذهب اليه طه حسين أن اللغه عامل توحيد، وتساءل : هل تعتقدون أن هذه الخطوط الوهمية التى تفصل مصر عن سائر البلاد العربية بصورة اعتبارية واصطناعية تستطيع أن تعمل عملا مماثلا لعمل البحر المحيط الذى يفصل أمريكا عن أوروبا بصورة حقيقة وطبيعية".

وفى حين استبعد طه حسين وجود منفعة من تحقيق الوحدة العربية، ذهب الحصرى الى أنه يعتقد عكس ذلك تماما قائلا : "اعتقد أن فكرة الوحدة العربية لاتسند الى العاطفة وحدها، بل تستند الى المنفعة أيضا"، وقال فى لهجة شبة جازمة: "ان المنفعة هى التى ستسير المصريين نحو الوحدة العربية عاجلا أو آجلا"، وأيد طه حسين فى مناداته بتوحيد الثقافة العربية– مؤكدا مدخله الثقافى للوحدة – قائلا "اضمنوا لى وحدة الثقافة، وأنا أضمن لكم لكل ماتبقى من ضروب الوحدة".

وقد رد طه حسين على هذه الردود بدوره فى اعداد "الرسالة" و"الهلال" ليرد عليه الحصرى بدوره فى جوله تالية.(٨)

سعد زغلول :

شاع فى العشرينات فى مصر والعالم العربى وصف سعد زغلول للوحدة العربية بأنه "اذا جمعت صفرا الى صفر، فصفر، فماذا تكون النتيجة؟ "وهى

الرواية التى نشرها عن سعد زغلول الأستاذ عبد الرحمن عزام، الأمين العام الأسبق لجامعة الدول العربية.

يتساءل الحصرى- منتقدا رواية سعد زغلول- هل كان سعد زغلول مصيبا فيما يقول؟ هل كان محقا فى اعتبار الشعوب العربية أصفارا؟ هل كانت مصر صفرا عندما ثارت ثورتها الخالدة وأدهشت العالم بالاتحاد الرائع الذى شمل جميع طبقات الشعب من أفقر الفقراء الى أغنى الأغنياء، ومن أصغر الموظفين الى أكبر الأمراء، وبروح التضحية الهائلة التى جعلت الثوار يهجمون على الجيوش الانكليزية المجهزة بأفتك الأسلحة بزجاجات عادية ملئت بالرمال؟

وهل كانت سوريا أيضا صفرا؟ سوريا التى كانت تغلى فى تلك الأيام كالمرجل لتأسيس حياة قومية جديدة، سوريا التى قاومت جبروت الفرنسيين مقاومة عنيفة، حتى اضطرتهم الى حشد مائه ألف جندى..

هل كانت صفرا حقيقة؟ والعراق الذى قام بثورته الشاملة، وكبد الانجليز خسائر فادحة فى الأموال والارواح، واضطرهم فى آخر الامر إلى التخلى عن فكرة جعل البلاد مستعمرة تابعة لمستعمراتهم الهندية، هل كانت صفرا أيضا؟".

ويرى الحصرى أن سعد زغلول كان على خطأ عظيم عندما اعتبر الشعوب العربية كلها أصفارا "نعم، أنها لم تكن آحاد تامة، ولكنها لم تكن أصفارا أيضا فى أية حال من الأحوال".

وبعد أن يستعرض الحصرى امكانيات الشعوب الصغيرة الداخلة فى

وحدات، يطرح رؤيتـه المتفـائلة : "علينا أولا، أن نكف عن اعتـبـار أنف
وشـعوبنا أصـفارا، وعلينا، ثانيا، أن نؤمن بأن لشعوبنا قوى كامنة هائل
تتـحول الى قـوى فـاعلة، اذا بذلنا فى هذا السـبـيل الجـهـود اللازمـة، وعا
ثالثا، أن نكف عن تشبية قضايا اتخاذ الأمة بعمليات جمع الأعداد، و
فى آخر الامر أن نكف عن الاستشـهاد بكلمة" جمع الأصـفـار الى الأص
فى قضايا القومية العربية، ولو كانت الكلمة المذكورة من بنات أفكار
زغلول الخالد"(٩).

أحمد لطفى السيد :

مثل أحمد لطفى السيد أهم رموز القومية المصرية فى مصر قبل ١٩٥٢.. وهو يمثل أيضا الامتداد البارز لدعوة القومية المصرية التى أط رفاعة الطهطاوى وسار بها مصطفى كامل وعلى مبارك والمرصفى..

ويعتبر تيار القومية المصرية أن المصريين يكونون أمة قائمة بذاتها نموا طبيعيا، حيث ربطت المصالح على مر الزمان بين أفرادها وجعلت أمة مصرية، سخر لطفى السيد صحيفته (الجريدة) لدعوته، وآمن بالق المصرية كسبيل لوحدة الامة وأنكر الجامعة العثمانية لأنها لون من ا الاستعمار.

ويصور لطفى السيد الشخصية المصرية فيرى أنه "نحن فراعنة م ونحن عرب مصر ونحن مماليك مصر وأتراكها، نحن المصريون دائما نحن تحت حكم العائلة الخديوية الا نحن تحت حكم العائلة الفرعونية، أو حكم من قبلها أيضا بشئ من التطور الزمنى قضى به التغير العالى الم

حافظين الكثير مما ورثناه من آبائنا الأقربين والأبعدين. كل هذه المشخصات القومية، المادية والمعنوية، الورثية والكنيسية، من شأنها أن تجعل بيننا رابطة الجنسية أقوى منها فى أكثر الأمم"(١٠).

ويرفض لطفى السيد أى رباط لمصر غير المصرية أو أى انشاء معنوى لها آخر ويرفض الرباط العربى والاسلامى ضمنا، فيقول : "كذلك نحن المصريون نحب بلادنا ولانقبل مطلقا أن ننتسب إلى وطن غير مصر، مهما كانت أصولنا حجازية أو بربرية أو تركية وشركسية أو سورية أو أوروبية. أقمنا فى مصر وطنا لنا وعقدنا معها عقد صدق ترزقنا من خيرها ونقوم على مصالحها ونفدى شرفها بأرواحنا. فما النزر اليسير الذى لايزال يجب الانتساب الى قوم غير المصريين أو الى وطن غير مصر الا ناكث عهده ومتاجر شرفه اذ من القواعد الاولية للعيشة الانسانية ان "الغرم بالغنم" فالذى يعيش فى مصر يجب أن يدفع ثمن هذه العيشة الراضية محبا لها وحنانا عليها، وأقل أقدار المحبة عدم عقوقها والانتساب الى غيرها"(١١)

والأخطر أن لطفى السيد رفض مبدئيا مناقشة وجود مايسمى "بالمسألة العربية" فليس فى نظره وجود لقضية عربية تستحق الجدل والنقاش، واعتبر ان الكفاح من أجل الاستقلال فى دول المشرق العربى أمر يخص أهلها أو يخص العثمانيين ولا يخص مصر.. يقول حول القضية العربية أو الفكرة القومية بالتحديد فى واحدة من أشهر مقالاته المناهضة لها:

"ليس هناك مسألة عربية، لكن هناك قلقا فى قلوب كثير من العرب سببه التفات بعضهم الى احصاء الموظفين فى كل عنصر، وشيوع تهمة أن للحكومة

يدا فى الانتخاب إن صدقا وإن كذبا. نقول اذا كان للمسألة العربية محل من الوجود، فان وجودها الآن سابق لأوانه جدا. وخير للذين يسعون فى تأليف حزب لبث شكايات العرب ونشرها ان يرشدوا الأعراب الى معنى الدستور.. ولئن كانت المسألة العربية ظل من الوجود فحلها بيد العثمانيين من غير ضارة بأحد"(١٢)

والأغرب أن لطفى السيد بعد أربعين عاما كاملة من اطلاق آرائه السابقة، يعود ليتشبث بها، ويعود الى التأكيد على القومية المصرية ورفض الدعوة القومية، فيقول قبل عامين من ثورة يولية، ومن خلال دفاعة عن القومية المصرية بعد هزيمة فلسطين ١٩٤٨.. "كنت فى تأييد مصرية المصريين، لأن منهم من كانوا يدعون أنهم عرب ومنهم من يدعون أنهم أتراك أو شراكسة.

ولو كان اليونان حينما ملكهم الأتراك قد خرجوا عن قيوميتهم لبادت شخصيتهم ولماتت فى نفوسهم أطماع الاستقلال ببلادهم ولاستحال عليهم أن يردوها اليوم. وبذلك نحن المصريين، يجب أن نتمسك بمصريتنا ولا ننتسب، الى وطن غير مصر، مهما كانت أصولنا حجازية أو سورية أو شركسية أو غيرها. ويجب أن نحافظ على قوميتنا ونكرم أنفسنا ووطننا ولا ننتسب الى وطن آخر ونخصه وحدة بكل خيرنا وكل منافعنا ونحيطة بكل غيرتنا"(١٣)

يفند الحصرى آراء لطفى السيد حول انكار عروبة مصر والقضية العربية، فيرى أن مساواة لطفى السيد بين العروبة والتركية خلال دعواه الى المصرية غير منطقية، فالمتاعب التى تعرضت لها اليونان بعد انفصالها عن الدولة العثمانية جاءت بسبب علاقاتها المذهبية - المذهب الارثوذكسى- ولم تتغلب

على هذه المشاكل الا بالاصغاء الى نداء اللغة والوطن لا نداء الدين والمذهب ويظهر من ذلك بوضوح وجلاء أن اليونانيين مدينون بكيانهم السياسى الراهن الى تمسكهم بلغتهم القومية، والى تفضيلهم الاصغاء الى نداء هذه اللغة على أى نداء آخر".(١٤)

وبعد ان يستعرض الحصرى تفصيليا نضال اليونانيين من اجل الوحدة والذى أصبح حقيقة واضعة، ينبه لطفى السيد برفق الى عدم لى الحقائق وتجاهل منطق التاريخ فيقول "كيف كان يتطور تاريخ اليونان لو قال زعماؤها قبل قرن ونصف قرن مايقوله الاستاذ لطفى السيد هذه الايام"؟..

ونلاحظ ان الموقف الفكرى للطفى السيد موقف منسجم مع طبقته، فلقد مثل لطفى السيد البرجوازية المصرية الليبرالية، وعبر عن مصالحها وأهدافها فى السعى للحلول مكان الطبقة الحاكمة المكونة من عناصر تركية وشركسية واتفق مع الطهطاوى فى الأركان الثلاثة لفكرة الليمان بالقومية المصرية والديمقراطية الليبرالية والدعوى الى نقل مقومات الحضارة الأوروبية.

اسماعيل القبانى:

يعد اسماعيل القبانى أهم مفكر تربوى فى الأربعينيات والخمسينيات فى مصر بل وصل الى كرسى وزارة المعارف محاولا تطبيق أفكاره عمليا .. وقد وقف القبانى موقفا متحفظا من الفكرة القومية العربية فى مصر.. ولكن بعد وحدة ١٩٥٨ بين مصر وسوريا بدأ يعدل من موقفه منها..

يرى القبانى ان التباين بين اقطار الأمة العربية لا يتعارض مع وحدة الثقافة فيها طالما هناك اشتراك عام فى الافكار والاتجاهات والقيم.. ولذلك

فالوحدة الثقافية قائمة فى الامة العربية بالرغم مما قد يكون هنالك من عناصر ثقافية تختلف من اقليم عربى الى آخر. وقد نشأت هذه الوحدة نتيجة للتاريخ المشترك الطويل، الذى أدى الى وجود لغة وعقائد وغايات مشتركة ونشوء آداب وفنون ونظم مشتركة. فعندما يتكلم البعض عن التوحيد الثقافى بين البلاد العربية فهذا تعبير غير دقيق. اذ ليس المقصود انشاء الوحدة الثقافية حيث لاتوجد، وانما المقصود العمل على تقوية الشعور بها، وابراز العناصر المشتركة فى وعى الافراد، وتعريف شعوب البلاد العربية بالعناصر التى تختلف من اقليم الى آخر، نتيجة للانعزال الذى وقعت فيه هذه الأقاليم فى بعض العصور الحديثة"(١٥)

ورد الحصرى على رأى القبانى من استحالة توحيد الثقافة العربية بحجة "اختلاف البيئات الطبيعية للاقاليم العربية، وإن الاختلاف يؤثر بعمق على طبيعة الحياة البشرية والثقافية للامة العربية، وبالتالى يحول دون اقامة الوحدة الثقافية".(١٦) فيرى الحصرى أن "الحياة الحضارية الحالية قد هيأت للانسان من السبل والوسائل، ما يمكنه من السيطرة على تلك المعوقات، ويرى أيضا أن تجانس البيئة الطبيعية يلائم حالة الشعوب البدائية والأقوام العشائرية البسيطة، بل يعتقد أن تنوع البيئات الطبيعية يكسب الأمة بنية طبيعية متكاملة تعزز مكانتها الاقتصادية وتقوى من وحدتها الثقافية، كمثال الأمة الفرنسية التى حققت وحدتها القومية دون أن تقف تلك الظروف حائلا بوجه وحدتها الثقافية "وفرق الحصرى بين معنى الثقافة الموحدة والتعليم الموحد، ورأى أن "الوحدة فى الثقافة تتطلب تمازج وتناسق الأفكار والعواطف

المختلفة لاشرط تجانسها أو تماثلها تماما، بينما وحدة التعليم تعنى الموازنة والمؤالفة بين توحيد الأسسس والاتجاهات فى المناهج وبين تنوع المقررات وطرق التدريس ومعاهد التعليم".(١٧)

ويشير الحصرى إلى أنه لايقصد التنوع فى الثقافة، بل يرى أن هذا لايتعارض ووحدة الأسس والغايات التى توضع فى المناهج بصورة عامة.

ويمكننا أن نربط مساجلة ساطع الحصرى السابقة مع اسماعيل القبانى برؤيته لسبيل تحقيق الوحدة العربية، حيث هو السبيل الثقافى الحضارى أساسا وليس السياسى .. ولقد عول الحصرى أهمية كبيرة على التوجيه القوى للتعليم، وتوحيد المقررات الدراسية بين الدول العربية ونشير هنا الى مقال هام له نشر عام ١٩٤٨ فى مصر فى احدى الدوريات التربوية(١٨) بعنوان "العلاقات الثقافية بين الدول العربية"، يشير فيه الى ضرورة الوصول الى استراتيجية تعليمية عربية موحدة، والانتهاء من ذلك إلى تكوين ثقافة عربية موحدة، ومن هذه السبل فى رأية : تبادل المدرسين والأساتذة، تبادل الطلبة والتلاميذ، معادلة مرحلة التعليم وشهاداته، وتشجيع الرحلات بين الطلاب العرب، احياء التراث الفكرى والفن العربى ونشره، تنشيط جهود الترجمة الأجنبية، تشجيع الانتاج الفكرى فى البلاد العربية، توحيد المصطلحات العلمية بواسطة المجامع اللغوية والمؤتمرات وتعريب التعليم، تشجيع عقد المؤتمرات الثقافية والعلمية والتعليمية، اقامة المهرجانات.

لعل أثر المفكر القومى الكبير ساطع الحصرى فى نشر الوعى القومى والدعوة العربية فى مصر وخاصة قبل ثورة ١٩٥٢ أثر كبير، ويمثل صفحة

هامة من صفحات الديالكيتك العروبي في مصر قبل ثورة ١٩٥٢، ولعل الاستقراء السابق لجهود ساطع الحصري في نشر الدعوى القومية من مصر تشير الى عدة دلائل هامة نوجزها فيما يلي :

١- إن اهميتها تكمن في أنها جاءت أثناء مرحلة غلب ضعف الفكرة العربية في مصر، وعدم بلورتها وتعميقها قبل القيادة الناصرية لثورة ١٩٥٢، ومن هنا كانت أهميتها في أنها ساعدت على ايقاظ الوعي القومي بين المصريين، والتصدي للتيارات الانعزالية والاقليمية المناهضة للاتجاه القومي العربي.

٢- إن مدخل ساطع الحصري في جهادة القومي الوحدوي كان مدخلا ثقافيا يندرج تحت اطار الوحدة الثقافية، وحيث يرى الحصري في وحدة اللغة والتاريخ أهم الركائز القومية "فاللغة تكون روح الأمة وحياتها.. والتاريخ يكون ذاكره الأمة وشعورها"(١٩).. كما ربط ايمانه بتوجيه مصر نحو مصيرها العربي بتوفر هاتين الركيزتين في الثقافة المصرية "فالمصريون بأجمعهم يتكلمون ويتخاطبون باللغة العربية، فهم عرب ولامبرر للتساؤل فيما اذا كانوا عربا جنسا ودما.. ولاتوجد أمه ينحدر جميع أفرادها من أصل واحد، واللغة هي أداة للتفكير وواسطة للتعبير عن الآراء والأحاسيس.. والوحدة في التاريخ تنشأ من الوحدة في الثقافة.. وحدود اللغة أوسع بكثير من حدود الدولة المصرية".(٢٠).

٣- إن الحصري كان يؤمن بالدور القيادي الحيوي لمصر في النضال القومي العربي الوحدوي وتكاد نجد صدى لهذه الرؤية في أغلب مؤلفاته.

٤- إن جهود الحصرى فى نشر الدعوة القومية فى مصر كانت جهودا فردية وليست جماعية، ومع ذلك قدر لها أن تتعامل مع الجدل الدائر فى مصر بين الاتجاهات الفكرية المختلفة، ومع الأحداث التاريخية الدافعة بالوعى القومى العربى لدى المصريين تجاه السطح، والتى أثمرت فى النهاية مع تبنى القيادة الناصرية للحل القومى، وتتحقق واحدة من أهم نبوءات - أو توقعات الحصرى - لتقود مصر سفينة العمل القومى مع القيادة القومية لمصر عبد الناصر وقبل أن تنتكس هذه المسيرة فيما بعد، وبعد رحيله بالتحديد.

الهوامش

(١) أنيس صايغ : تطور الفكرة العربية فى مصر، مطبعة هيكل الغريب، بيروت ١٩٥٧، ص ٢٣٩.

(٢) أبو خلدون ساطع الحصرى : آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية، مطبعة الرسالة، القاهرة ١٩٤٤، ص ١٣١.

(٣) أبو خلدون ساطع الحصرى : حول الوحدة العربية (رد طه حسين) مجلة الرسالة القاهرة يوليو ١٩٣٩.

(٤) نبيل أحمد عامر . ساطع الحصرى وبناء نظم تعليمية عربية حديثة فى إطار الوحدة الثقافية العربية، صحيفة التربية، تصدرها رابطة التربية الحديثة، القاهرة ديسمبر ١٩٦٦، ص ٥٧.

(٥) راجع المساجلة فى :

أبو خلدون ساطع الحصرى : أبحاث مختارة فى القومية العربية، دار المعارف القاهرة ١٩٦٤، س ٢٠٢- ٢١٧.

(٦) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر: مطبعة المعارف ومكتبتها، القاهرة ٩٣٨ ص ٥٢٩ - ٥٣٢.

(٧) المصدر السابق ص ٦- ١١.

(٨) الرسالة عدد ١٩/ ١٢/ ١٩٣٩، ٢٦/ ١٢/ ١٩٣٩.

(٩) أبو خلدون ساطع الحصرى : العروبة أولاً، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٢٥.

(١٠) احمد لطفى السيد، الجريدة فى ١٩/ ١/ ١٩١٣.

(١١) احمد لطفى السيد، الجريدة فى ١٩/ ١٩١٣.

(١٢) احمد لطفى السيد، الجريدة فى ٣٠/ ٨/١٩١١.

"إن مصر هى العقل والقلب ..

واذا ضربنا مصر فنحن نضرب عقل وقلب العرب"

– جون فوستر دالاس –

١٩٥٦

الباب الثانى

عروبة مصر بعد ثورة ١٩٥٢

(الهوية العربية لمصر من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل)

العدوان الثلاثى ومسيرة النضال العربى القومى

يحاول هذا الفصل الإجابة على سؤال محدد هو :

ماأهم النتائج المترتبة على حرب ١٩٥٦ أو (العدوان الثلاثى) كما شاعت التسمية فى الذاكرة الشعبية العربية بمسيرة النضال القومى العربى؟

ولانفترض فى البداية أن هذه الحرب - وأن كانت نقطة تحول - محطة مستقلة متقطعة الصلة عما قبلها من تطورات وأحداث فى الوطن العربى، وليس من المبالغة أن نجد صلة مابين هذه الحرب وموقعة : نفارين فى القرن التاسع عشر، أو بينها وبين معركة التل الكبير عام ١٨٨٢ أو غيرها من معارك التحرر العربى.

فتاريخ النضال التحررى فى مصر وأرضنا العربية يخضع لعلاقات جدلية، متداخلة، متفاعلة.

ولوضع العدوان الثلاثى فى إطارها الصحيح، ينبغى التعرض للسياق التاريخى الذى صبغ القيادة الناصرية لثورة يولية بصبغتها القومية، ولو خلال السنوات القليلة السابقة على هذه الحرب، وبالتالى معرفة آليات حركة العمل القومى العربى من منظورها المصرى، واستخلاص النتائج لهذه الحرب والمتصلة بمسيرة النضال العربى القومى.

السياق التاريخي لثورة يوليو :

مع أن ثورة يوليو قد مثلت عند تفجرها مشروعا مصريا خالصا من خلال قراءة مبادئها الستة وكذلك تحليل منشورات الضباط الأحرار وخلوها من اشارات قومية، الا أن ثورة يوليو مع ذلك كانت أهم حاضنة للفكر القومي العربي، وبالتالي حركة العمل القومي فيما بعد، وكان لدى الضباط الأحرار بعض التطورات القومية، تتصل بانتمائهم العربي، الا أن هذا التصور لم تتكامل أبعاده، ولم يكتسب طابعه الثوري الحركي الذي يعد جوهر الانجاز القومي للقيادة الناصرية الا على امتداد زمني امتد حتى مطلع الستينات. ويمكن اعتبار ثورة ٢٣ يوليو احدى النتائج البعيدة لهزيمة العرب في حرب ١٩٤٨، ولكن من خلال ربط نتيجة الحرب بفساد الأوضاع الداخلية في مصر، وليس من منظور قومي أبعد، وحينما يذهب مفكر مثل أنيس صايغ إلى أن "قضية فلسطين لعبت الدور الأكبر في المجرى التاريخي لتطور الفكرة العربية في مصر"(٢) فانه يقصد أن هذه الحرب قد نبهت الوعي المصري إلى قضية شعب، وإلى الخطر الصهيوني وانها بشكل أو بأخر نبهت الحركة الوطنية المصرية إلى ارتباط مصيرها بمصير العالم العربي كله.

ومع ذلك فان فكرة الوحدة العربية – كما يلاحظ طارق البشري – لم تطرح بشكل واضح كهدف من أهداف السياسة المصرية العملية في هذه الفترة .. كان الاخوان المسلمون وحزب مصر الفتاة على رأس القوى المصرية في تأييد الكفاح المسلح ضد الصهيونية، وألف التنظيمان كتائب الجهاد، وبدأ الاهتمام يتصاعد تجاه الخطر الذي تمثله الصهيونية على الحدود الشرقية ..

وجـاءت الثـورة فـى ظل هـذه الظروف، وتحت هذا المناخ "فكان على هذا المولود أن يحمل على صعيد الوطن أمـانة مـعالجـة القضيـة العربية مـدركا مسئولية مصر ودورها كما حددتها حقائق المكان والزمـان، وواعيا مسئوليـة الوطن العربي ودوره فى عمله، وهذا يعنى النضـال لتـحرير كل شبـر عـربى مـحتل ولتحقيق وحدة الأقطار العربية ولبناء التـقدم وصـولا إلى القيام بدور عربى على صعيد العالم[٣]".

وظهرت ثورة دولية فى مصر من خلال متغيرات دولية تمثلت فى عالم مابعد الحرب العـالمية الثانية، ومع بداية أفول نجم الاستـعمار التقليـدى، ولسوف يكون لهذه الثورة بعد أربع سنوات شرف المسـاهمة فى تعـجيل هذا الأفول، وظهر واضحا أن هناك قوى استعمارية جديدة، بل الأدق قوى أساسية تمثلها الولايات المتحدة الأمريكيـة والتى ستتحول خـلال سنوات قـلائل أهـم حلقات الحصار حول نمو ثورة مصر التحررية فى وطنها العربى "ولقد جاءت حقبة عبد النـاصر فى تلك المرحلة الانتقالية التى كانت ظروفها الموضـوعية الدولية تملى حالة تسلم وتسليم بين مدرسة الاستعمـار الأوروبى التقليدى والاستعمار الحديث ذى الوجه الأمريكى" وكان يمكن لهذه المرحلة أن تتم بالطريقة الأسهل التى تمت بها مراحل انتقالية كثيرة لشعوب جنوب شرق آسيا ، لولا أن يقظة العـرب جمـدت تلك المرحلة، وحـاولت أن تحقق عـمليـة التسلم لصـالح تحـررها واستقلالها الوطنى القومى الشامل. وجاءت ممارسة عبد النـاصـر لترمـز إلى تلك الحالة التـاريخية الجديدة الفذة، حالة القطعية مع الاستعمار القديم كليا، والدفاع المطلق ضد عودة الاستعمار الجديد[٤]".

ومن ثم يمكن القول أن الانجاز الرئيسى الذى حققته ثورة ٢٣ يوليو – على مستوى مسئولية مصر القومية – هى انها أعادت مصر إلى الوطن العربى فى الوقت نفسه جعلت منها قائدة لهذا الوطن فى حركته نحو التحرر. وارتبط ذلك بظهور حركة نضال قومى ليس ضد الاستعمار الأوروبى وحده بل ضد استعمار آخر جديد هو الاستعمار الصهيونى" وفى الواقع فانه منذ قيام اسرائيل غدت حركة التحرر الوطنى العربية، حركة تحرر قومى، ذلك هو معنى التحول التاريخى الذى طبع مستقبل العمل العربى .. وبالمقابل فقد صار الهم الاسرائيلى الحديث ينصب كله على تحطيم هذه النقلة فى التحول النوعى وليس مجرد الكمى من الدائرة الوطنية إلى الدائرة القومية(٥)".

وجاءت الناصرية فى الخمسينيات من خلال هذا التحول وتلك النقلة من ماهو "وطنى" إلى ماهو "قومى" ومن ماهو "استقلالى" إلى ماهو "تحررى" وكما يرى منح الصلح فان قيادة عبد الناصر "جاءت مع استعادة التاريخ العربى لوحدته الضائعة ويقدر ماعاون فى الولادة الجديدة لهذا التاريخ، من خلال علاقته المتميزة بالجماهير، كان عبد الناصر وكانت الناصرية متقدمة فى الوطن العربى"(٦) ووافق ذلك الطريق الثورى فى مصر تكون تلك المرحلة الجديدة من التاريخ العربى الواحد، ويلاحظ روبرت ستيفنز وعى عبد الناصر بهذا السياق التاريخى الجديد وتفاعله معه وانتمائه الى تلك الحركة المتفاعلة واستمراريته لها "فبينما كان عبد الناصر انسانا طبيعيا تلقائيا يتصف بالعمق المشوب بمسحة مأساوية وبعقلية سياسية رصينة، الا أنه كان متأثرا أعمق التأثير بالسياق التاريخى والحضارى الذى يتحرك فيه .. لقد كان

مصريا عربيا مسلما، ولكنه كان ايضا وفى الاساس ثائرا من ثوار العالم الثالث ولقد كان نتاجا ومحركا لنفس الثورة المعادية للاستعمار التى أفرزت نهرو وماوتسى تونج وسوكارنو وكاسترو وهو شئ "منه"(٧)

ويؤكد هيكل على السمة الجدلية التى تميز ظهور القيادة الناصرية داخل حركة الوطنية المصرية من ناحية وحركة التحرر العربى من ناحية أخرى ..

"فعبد الناصر جاء كنتيجة طبيعية للتفاعلات الوطنية مع الاتجاه العربى"(٨).

وبرغم ماأشرنا اليه فى البداية من عدم وضوح الاتجاه القومى العربى بشكل رسمى خلال السنوات الأولى للثورة (باستثناء وثيقة "فلسفة الثورة" التى أشارت إلى الانتماء العربى لمصر) الا أنه يمكن الذهاب الى تداخل معارك مصر الوطنية مع المعارك القومية منذ اللحظة الأولى التى بدأ فيها عبد الناصر معركته من أجل انهاء الاحتلال البريطانى لمنطقة قناة السويس، وأصبح من الصعب تحديد الخط الفاصل بين النضالين ..

كانت الفترة بين قيام الثورة وعدوان ١٩٥٦ مليئة بتلك الاشارات والاحداث ذات السمة القومية، وقبل أن تبدر أول أشارة إلى (القومية العربية) فى الخطاب الناصرى، وهو خطاب تأميم القناة فى ١٩٥٦/٧/٢٦ والذى جاء فيه (فقاومنا الاستعمار، قاومنا هذه الدسائس، وكان الوعى العربى، وكانت القومية العربية قد استيقظت .. وانتقدت فى جميع البلاد العربية، فلم يستطيع الاستعمار أن يحقق أغراضه، وأن تضرب القومية العربيه عليه) وهو الخطاب الذى يعتبره ل. بايندر أول أشارة إلى عروبة مصر فى الخطاب الناصرى

وتوجهها القومي بشكل واضح .. ويمكن اعتبار غارة اسرائيل على غزة ١٩٥٥، وصفقة الاسلحة التشيكية ومؤتمر باندونج فى نفس العام اشارات واضحة لها مغزاها على الخط القومي الذى كانت تسير اليه ثورة يوليو، وحيث ربطت حركة النضال بحركة النضال القومي وكشفت حجم الخطر الصهيونى من ناحية، كما ربطت حركة النضال الوطنى بنضال العالم الثالث من خلال تأسيس حركة عدم الانحياز.

غارة غزة ١ فبراير ١٩٥٥ :

لاتحظى غارة غزة فى كتابات كثير بالأهمية الذى يحظى به حدث كبير كعدوان ٥٦ اثر تأميم القناة فى دراسة تطور الوعى القومي عند عبد الناصر وزمرته. يعترف عبد الناصر نفسه بأن هذا الاعتداء "كان نقطة التحول، لقد كان هذا الاعتداء "هو ناقوس الخطر".

ويقول للصحفى الغربى ديزموند ستيوارت "كنت مسالما حتى بالنسبة لاسرائيل، وذلك برغم التحذيرات التى صدرت عن بعض ضباطنا، وفى ليلة واحدة .. ليلة ٢٨ فبراير ١٩٥٥ تغير كل شئ، كان لابد من وجود السلاح لندافع عن انفسنا فقد رأيت اللاجئين وارعبتنى فكرة احتمال مشاهدة المصريين وقد أصبحوا فى وضع مماثل"(٩)

وترتب على هذه الغارة عدة نتائج هامة منها : أبلغت الحكومة المصرية حكومة الولايات المتحدة بعد خمسة أشهر باعتذارها عن تنفيذ مشروع سيناء لتعذر ايصال مياه النيل المعذبة إلى سيناء، كما اتخذ عبد الناصر قرارا خطيرا بتشكيل وحدات فدائية فلسطينية تعمل من قطاع غزة، وتتخذ من

فلسطين المحتلة ميدانا لنشاطها، الا أن القرار الأخطر الذى ترتب على هذه الغارة فجاء فى سبتمبر من نفس العام وهو قرار صفقة الأسلحة التشيكية، وهو القرار الذى حرر العرب من ناحية (نلاحظ فى هذا الصدد اتجاه بعض الدول العربية الى تنويع احتكار السلاح منذ منتصف السبعينيات كامتداد لقرار عبد الناصر فى منتصف الخمسينيات) وأعاد - إلى حد ما - صياغة معادلة التعادل مع القوى العظمى فى المنطقة، كما أنه قرب مصر من التعامل مع الكتلة الاشتراكية التى رفعت شعار السلام العالمى فى ذلك الوقت ..

وضع عبد الناصر بهذا القرار نفسه فى مواجهة حتمية - غير مقصودة - مع التنين الأمريكى فى نهاية الطريق .. ويمكن القول اجمالا "ان الغارة العسكرية التى شنتها اسرائيل على قطاع غزة فى فبراير ١٩٥٥ كانت من أهم المؤشرات لفهم التطور فى علاقة ثورة يوليو بالصراع العربى الاسرائيلى"(١٠)

النتائج القومية للعدوان الثلاثى :

كانت النتائج المباشرة لقرار تأميم قناة السويس مختلفة من زاوية قرائها، فمن الزاوية الوطنية أسفر قرار التأميم عن مكاسب هائلة لمصر، لعل أهمها سيطرة مصر على قناة السويس لأول مرة منذ افتتاح القناة للملاحة سنة ١٩٦٩ وحصولها على ايرادات الملاحة فى القناة وقد بلغت تلك الايرادات بين عامى ١٩٥٧ و١٩٦٧ حوالى ٤٨٠ مليون جنيه بينما لم تكن تحصل مصر قبل التأميم الا على ٧٪ من تلك الايرادات بموجب اتفاق خاص مع الشركة وقع

سنة ١٩٤٩ وقد بلغ دخل هيئة قناة السويس من الملاحة سنة ١٩٨٣ وحدها ٩٨١ مليون دولار.

ثم ان قرار التأميم قد فتح بدوره المجال امام الدول العربية الآخرى لتؤمم ثرواتها الوطنية (وخاصة النفط) وتصبح لها السيادة الفعلية عليها وظهر ذلك واضحا فى الستينات والسبعينيات.. فكان تأميم القناة نقطة تحول فاصلة فى عملية تحرير الثروات الوطنية العربية..

وبينما عنى القرار كسبا جديدا لحركة التحرر الوطنى والعربى، فانه عنى فى المقابل اهانة وخطرا للمد والاستعمارى الغربى.. وكتبت صحيفة جابوكر الاسرائيلية فى أول اغسطس ١٩٥٦ "قناة السويس ليست الا البادرة الأولى فاذا ما حظى التأميم باعتراف دولى فسوف تحل ساعة تأميم آبار النفط ومن شأن هذا أن يبتر أقدام الغرب".

أما مجلة "باى هارتش... الفرنسية فكانت لهجتها تحريضية "اذا كانت فرنسا تريد انقاذ سمعتها والاراضى التابعة لها من الانهيار بوسعها فعل ذلك اليوم فى السويس والا اضاعت الفرصة لقد كان الامر بالغرب يعنى اساسا الحفاظ على الهيمنة الاستعمارية فى المنطقة والتى يهددها قرار عبد الناصر بتأميم القناة.

كانت حرب ١٩٥٦ نقطة التحول الفعلية فى توجه مصر القومى، حيث حسمت قضية عروبة مصر ودورها القومى(١١).. لقد اكتشف عبد الناصر من خلال أحداث ونتائج حرب ٥٦ الأبعاد الواسعة للنضال العربى الواحد والذى تجلى فى مساندة العرب لمصر فى تلك الحرب.

لقد آمن عبد الناصر من خلال تجربة الحرب بمدى أهمية الرصيد العربى فى تحقيق أهداف نضال الشعوب العربية، وامكانات لتوحيد العربى من حوله ويمكننا أن نعدد بعض تأثيرات حرب السويس بأحداثها المحدودة على حركة القومية العربية والسيرة التحررية للأمة العربية من داخل البؤر ة المصرية على النحو التالى :-

١- تكريس القيادة الناصرية والدور المصرى فى المشروع القومى:

لقد أفرز صمود الشعب المصرى العظيم لقوى العدوان المتآمرة القيادة القومية التاريخية لعبد الناصر، وساهمت الجماهير العربية بحماسها وتلاحمها معه فى صناعة قيادته الكارزمية، وعمدت الحرب عبد الناصر زعيما للعرب بلا منازع "معركة السويس هى التى وضعت مصر الناصرية فى مركز قيادة حركة القومية العربية وحركة الوحدة العربية. إلى ذلك الوقت كان الفكر القومى هو فقط شغل عدة آلاف من المثقفين العرب فى الشرق. وكان العمل الوحدوى الى ذلك الوقت هو شغل عدة أحزاب صغيرة فى مقدمتها حزب البعث وحركة القوميين وبقيادة عبد الناصر للحركة القومية العربية، تحول الفكر القومى والعمل الوحدوى الى تيار شعبى هائل من المحيط الى الخليج"(١٢)

ويعتبر على الدين هلال حرب ٥٦ ووحدة ٥٨ أوراق اعتماد عبد الناصر قائدا للثورة العربية التحررية "كان تأميم شركة قناة السويس والعدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ ثم الوحدة المصرية السورية فى ١٩٥٨ معالم

رئيسية فى تكريس الزعامة الناصرية للمنطقة خلال الحقبة التالية" ويلاحظ مطاع صفدى الى أن تكريس الزعامة الناصرية جاء أولا من خارج مصر، من قبل الجماهير العربية، وقبل الشعب المصرى، ويمكننا أن ندلل على رأية من خلال التظاهرات الشعبية العنيفة فى المشرق العربى وضد الأنظمة الرجعية وقتها وخاصة فى العراق والأردن "فكان تأميم قناة السويس أول عمل وحدوى تكاملى يجئ ردا على.

"فلا عجب أن تكريس زعامة عبد الناصر قد اقترن بتحرير السويس ولا عجب ان جاءته هذه الزعاة أولا من خارج مصر"(١٤)

وكان الدعم التأييد الشعبى تأكيدا على رصيد ثورة يوليو التحررية فى المحيط العربى، مما جعل عبد الناصر يعيد اكتشاف القومية العربية، وجعله يحدد بشكل حاسم ونهائى موقفه القومى "لقد اكتشف عبد الناصر ان البعد الحقيقى للقومية هو بعد يكمن فى الطاقات الشعبية"(١٥)

٢- العداء القومى للهيمنة الاستعمارية:

كشفت أحداث الحرب عن انحياز الثورة العربية للهدف التحررى، واصرارها على المضى فى معاداة المد الاستعمارى، ليس على مستوى مصر وحدها بل على مستوى العالم الثالث من خلال التصدى لقوى استعمارية عنيدة من قبل دولة صغيرة "فلا شك أن تأميم القناة كان ولازال أهم عمل ثورى أقدمت عليه دولة فى العالم الثالث منذ الحرب العالمية الثانية الى اليوم ن حيث الأبعاد التى ترتبت عليه دوليا واقليميا، وبشكل خاص دوره فى حسم ملية الاحلال الاستعمارى"(١٦)

وبرغم ادانة الولايات المتحدة للعدوان، إلا أن الخطر الذى مثلته قوة القومية العربية من خلال قيادة عبد الناصر وسط تأييد من الهدير الشعبى الجارف داخل وخارج مصر قد فتح عيون واشنطن على خطورة هذا العد الجديد تجاه تهديد المصالح الاستعمارية سواء الاستعمار القديم الذى عجل عبد الناصر بسقوطة (أوربا الغربية) أو مصالح الاستعمار الجديد الفتى (الولايات المتحدة).....

"فقد وصلت الناصرية بالنضال العربى ضد السيطرة الخارجية الى أعلى ذروة، وبالتحديد استخدمت قيادة عبد الناصر امكانات مصر فى تصفية علاقات التبعية التى كانت تربط قسما كبيرا من الوطن العربى بانجلترا وفرنسا"(١٧)

وأصبح – بناء على دروس حرب السويس – اتخاذ الأنظمة العربية موقفا معاديا للسياسات الاستعمارية معيارا لوطنية هذه الأنظمة وبدأ أن عبد الناصر قد فجر ثأرا تاريخيا مكنونا فى الصدور ضد الاستعمار الأوروبى "وفى ضوء الكراهية شبه الكاملة التى يكنها كثير من العرب للغرب، فان أهم قضية يمكن أن يتبناها زعيم مرهف هو سياسة عامة معادية للغرب .. لقد تحول اختيار هذا الموضوع فى وقت يتعاظم فيه شعور الاحباط لدى العرب فى اوائل الخمسينات، دليلا على مقدرة عبد الناصر الفذة على توقيت المعارك"(١٨) .. وكانت معركة السويس فرصة لتحدى معادلة التفوق الغربى واسترداد الشعور بالذات لدى العرب.

لقد أعاد انتصار ٥٦ الثقة الى حركات التحرر فى العالم بعد انتكاسة

تأميم البترول فى ايران مع مصدق، وأكدت أمكانية نجاح شعوب صغيرة على التصدى للامبريالية العالمية.

٣- اسقاط النموذج القطرى للصالح القومى :

لم يعد ممكنا بعد حرب ٥٦ الوقوف أمام الحركة القومية العربية، فقد أسقطت تلك الحرب - من بين ما أسقطت - الصيغة القطرية وأعلت الصيغة القومية باعتبارها الصيغة القادرة على الدفع الحضارى والفاعلية السياسية.. "إن كسر حصار الاسلحة وتأميم قناة السويس شكلا المدخل الموسوعى لنظرية العمل الناصرى اذا كان هذا المدخل يربط الوطنى بالقومى، وهى تلك السمة التى لم تكن حركة التحرر الوطنى العربية قد استطاعت بعد أن تتمها. فقبل هذين الحدثين كانت مكافحة الاستعمار الاحتلالى تتم ضمن الدولة القطرية منفصلة عن بعضها"(١٩)

وكما رأينا فى مصر فقد أبرزت تلك الحرب الرباط العضوى بين الوطنية المصرية والقومية العربية، لقد أصبح من الصعوبة على أى نظام عربى تجاهل البعد القومى منذ تلك الحرب.

٤- تصحيح نظرية الأمن القومى العربى:

وضعت حرب ٥٦ العرب فى قلب قضية فلسطين، واذا كانت حرب ٤٨ قد نبهتهم الى خطورة الصهيونية فان حرب ٥٦ قد كشفت ذلك الترابط العضوى بين اسرائيل والامبريالية العالمية .. وأصبح بعد تلك الحرب معيار نجاح الثورة العربية هو موقعها داخل ساحة الصدام مع الصهيونية، وليس أى كسب أو نصر آخر .. وأصبح ذلك الصراع هو نقطة التفاعل بين القومية العربية

والثورة العربية، ولسوف نرى بعد تلك الحرب بأكثر من ١٥ عاما جيوش سبعة دول عربية تقاتل الى جانب الجيش المصرى والسورى على جبهتى سيناء والجولان فى حرب ١٩٧٣.

ويذهب مطاع صفدى إلى أن حرب السويس "كانت أول رد فعل جذرى من مستوى فعل اقامة اسرائيل"(٢٠) فكان اندحار العدوان الثلاثى من نوعية رد الفعل القومى على هزيمة العرب فى فلسطين عام ٤٨ .. وصححت تلك الحرب نظرية الأمن القومى العربى، وفى مصر كان هذا التغيير واضحا، وأصبح الوعى بأن "فلسطين" هى الرئة التى تتنفس بها مصر، ومن يتحكم فيها أو فيما وراءها يسهل عليه خنق مصر، أى عزلها عن مجالها الحيوى فى الشرق العربى، ولذلك ليس مصادفة ايضا أنه فى كل مرحلة تصنعت فيها الإرادة المصرية تصبح فلسطين وماوراءها شاغلها المركزى"(٢١)

وربط عبد الناصر مقاومة الخطر الصهيونى من خلال رؤية ترتكز على "تثوير" المنطقة العربية، والضغط بالدفع الشعبى من خلال مخاطبة الجماهير العربية متجاوزا حكامها، ولعل فى دور إذاعة صوت العرب الثورى اشارة الى تلك الرؤية، كما ارتبط مقاومة الثورة للخطر الصهيونى فى ربط النضال المسلح بالايديولوجية الثورية المتمثلة فى انتهاج الاشتراكية وتحقيق الوحدة والتحالف مع دول العالم الثالث والكتلة الاشتراكية، وتحقيق مشروع تنسوى فعال.

٥- تدعيم العمل الوحدوى:

يعد كثير من الباحثين الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨ من الآثار غير

المباشرة لهزيمة العدوان الثلاثى .. فقد غذت المشاعر القومية لدى الجماهير العربية لتحقيق المزيد من الانتصارات، وخاصة فى تحقيق الالتقاء بين أهم قطبين وحدويين فى الأمة العربية وهما قطب القاهرة، وقطب دمشق ..

"ولذلك كانت السويس هى طريق الوحدة القادمة بين القاهرة ودمشق، هى ذلك الجسر الذى يقفز مافوق اسرائيل متجاهلا وجودها كأنها لم تكن وليست كائنة، يفصل بين مركزى الاستقطاب النهضوى الذى كان يشكل العمود الفقرى للنهضة العربية دائما، وهو محور القاهرة - دمشق وصولا إلى بغداد، فالثمرة الايجابية الأولى لدحر العدوان الثلاثى كانت هى أول وحدة عربية فى هذا العصر"(٢٢)

لم تكن الوحدة العربية من خلال تجربة ٥٦ مجرد حلم مثالى أوضرورة تاريخية فقط بل كانت - ببساطة - استراتيجية دفاعية عملية ضد الخطر الصهيونى ودفاعا عن الاستقلال الوطنى .. ولعل الجماهير فى سورية، والقيادة الناصرية فى مصر قد استجابت لهذه الضرورة ووعت طبيعة الخطر المحدق بأوطانها لتخرج الى الوجود أول وحدة عربية فى تاريخ العرب الحديث.

وعندما أمم عبد الناصر القناة فى ميدان المنشية لم يكن يدرى زخم الأحداث القادمة وحجم التحديات التاريخية بالضبط ولكنه عندما صرخ بعبارته الشهرية "سنقاتل" من فوق منبر الأزهر كان واضحا انه عرف طريقه جيدا وصمم على المضى فيه إلى آخر مدى ومن حوله أكبر تأييد شعبى عربى حقيقى.

(١) أمانى عبد الرحمن صالح : جذور الفكرة القومية لثورة يولية (فى المشروع القومى لثورة يوليو) ج٣، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٤، ص ٩٠.

(٢) أنيس صايغ : تطور الفكرة العربية فى مصر، مطبعة هيكل الغريب، بيروت ١٩٥٩، ص ٣٩.

(٣) أحمد صدقى الدجانى : الناصرية، فى (المشروع القومى لثورة يوليو)، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٤) مطاع صفدى : الفكر القومى والممارسات الوحدوية لثورة يوليو، ندوة ثورة ٢٣ يوليو : قضايا الحاضر وتحديات المستقبل، ص٣.

(٥) احمد صدقى الدجانى : ص ٢.

(٦) منح الصلح : عبد الناصر والجماهير العربية، ندوة (ثورة ٢٣ يوليو : قضايا الحاضر وتحديات المستقبل، ص ٧.

(٧) Robert Stephens, Nasser, Allen Lane, The peguig press, London,1971, p41.

(٨) محمد حسنين هيكل : فى (فؤاد مطر : بصراحة مع عبد الناصر، دار الشروق، بيروت ١٩٧٩، ص ٩٩.

(٩) ل. بايندر : الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط، ترجمة خيرى حماد، دار القلم، بيروت ١٩٦٥، ص ٣١١.

(١٠)خطاب٢/١٠/١٩٥٥.

(١١) جاك دوماك، ومارى لوروا : من حصار الفالوجة حتى الاستقالة المستحيلة دار الاداب، بيروت ١٩٧٠، ص ١٧٥.

(١٢) ارسكين تشايلدرز : الطريق الى السويس، ترجمة خيرى حماد، الدار القومية

للطباعة والنشر، القاهرة ٦٢، ص ١٤٩.

(١٣) جميل مطر : ثورة يوليو والصراع العربي الاسرائيلي، ندوة (ثورة ٢٣ يوليو : قضايا الحاضر وتحديات المستقبل، ص ٣.

(١٤) محسن خضر : الاتجاه القومي العربي وأثره على التعليم في مصر من ١٩٥٢ – ١٩٨١، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية تربية عين شمس، القاهرة ١٩٨٦ ص ٧٤.

(١٥) سعد الدين ابراهيم : مصر تراجع نفسها : دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٣.

(١٦) علي الدين هلال : مشكلة الدولة القائد في النظام العربي – ندوة (النظام الاجتماعي العربي المعاصر)، مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس القاهرة ص ٣.

(١٧) مطاع صفدي : الفكر القومي والممارسات الوحدوية لثورة يوليو، مرجع سابق، ص ٢.

(١٨) حسن نافعة : الوطنية المصرية والقومية العربية في المشروع القومي العربي لعبد الناصر، في (المشروع القومي لثورة يوليو، ج ٣، المركز القومي للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٤، ص ١٤.

(١٩) سعد التائه : مصر بين العهدين – دار النضال، بيروت ١٩٨٢، ص ١١.

(٢٠) عادل حسين : نحو فكر عربي جديد، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٥، ص١٩٠.

(٢١) Demejian: Egypt Under Nasir, London University press, London,1971, pp42-34.

(٢٢) مطاع صفدي : الفكر القومي والممارسات الوحدوية لثورة يوليو، مرجع سابق، ص ١.

(٢٣) مطاع صفدي : المرجع السابق، ص ٢.

(٢٤) جميل مطر : ثورة يوليو والصراع العربي الإسرائيلي : مرجع سابق، ص ٥.

(٢٥) مطاع صفدي : مرجع ساب، ص ٥ ,٦.

المشروع القومى من الانفصال الى الوحدة

بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما على الانفصال، تبدو تجربة الوحدة المصرية السورية (١٩٥٨ - ١٩٦١) مازالت صاحبة الاهتمام الأكبر من قبل القوى الوحدوية فى وطننا العربى ..

استطاعت القيادتان المصرية والسورية - رغم كل التناقضات - أن تحقق حلما بعيد المدى، إذ جسدت النظرية القومية فى دولة موحدة، وحققت تتويجا معقولا لزخم قومى طويل منذ أواخر القرن التاسع عشر ..

وربما أضفى الانحسار القومى للعمل الوحدوى منذ بداية السبعينيات، وبعد وفاة عبد الناصر، بريقا أشد، وأهمية تاريخية مضاعفة على تجربة الوحدة المصرية السورية، فمنذ السبعينيات ومع انتقال السيادة فى الوطن العربى من مركز الثورة الى مركز الثروة، ووقوع بلدان الوطن العربى فى أسر الاستقطاب الأجنبى بدرجة أشد، وطأة منذ عصر الاستقلال، وشيوع حالة التجزئة والقطرية، ودخول المشاريع الوحدوية طيلة الخمسة عشر عاما الأخير تحت مناخ الأزمة، وتعثرها، بفضل غياب برنامج سياسى عربى موحد للنضال، ووقوع فصائل المقاومة الفلسطينية فى دائرة استقطابات الأنظمة العربية .. وتصاعد حدة العداء الامبريالى الأمريكى للثورة الفلسطينية، وبلا شك أن الحركة القومية متمثلة فى النضال من أجل الوحدة قد تأثرت بهذه

المعطيات، وتشكل العودة الى تحليل تجربة الوحدة المصرية السورية، واستخلاص نتائجها، مطلبا ملحا باستمرار خاصة مع شيوع حالة التجزئة والتمزق .. ولايمكن فصل القيادة القومية لعبد الناصر ودوره فى تجربة الوحدة عن التطور التاريخى المعاصر للحركة القومية منذ الخمسينيات.

فقد كان عبد الناصر مثيرا ومحركا للموحدات الحضارية الكبرى فى الوطن العربى.(١)

فقد كانت أحداث حرب ١٩٥٦ نقطة تحول فى تطور الاتجاه القومى فى مصر، وبالنسبة لعبد الناصر فقد ساعدته أحداث الحرب وملابساتها على اكتشاف القومية العربية بأبعادها الحقيقية خاصة فى بعدها الجماهيرى، وأيقن عبد الناصر أنه لايمكن تجاهل المحيط العربى الهادر المحيط بمصر، والذى وقف من وراءه فى مقاومة العدوان، ولكن لم يكن لديه تصور محدد لكيفية تحقيق الوحدة أو شكلها الدستورى ..

ولايمكننا الزعم بأن عبد الناصر كان يمتلك تصورا كاملا لتطوير ذلك الوعى القومى، ولم يكن على وعى كامل بالقوانين الأساسية للحركة القومية من أجل الوحدة .. فى مثل هذه الظروف تدافعت خطوات الوحدة، ولتدفع بعبد الناصر وبشعبه إلى خوض التجربة، والاستجابة لنداء السوريين من أجل الوحدة .. فلم تكن عملية التحول الاجتماعى فى مصر قد استكملت وكانت للرأسمالية المصرية سطوتها. يعتبر البعض أن ظروف الوحدة جاءت مزاوجة وظيفية بين ظروف سوريا ومصر.

فى سوريا كانت هناك أحزاب متعددة وحزب كبير منظم وبمعنى آخر كان

هناك تنظيم يحتاج الى القائد التاريخى ويبحث عنه خارج المجتمع السورى ووجده فى أكبر وحدة مجتمعية فى الوطن العربى، وجد القائد فى مصر ممثلا فى جمال عبد الناصر.

وفى مصر كان يوجد القائد التاريخى الذى يحتاج الى قاعدة سياسية واعية مؤمنة الأهداف القومية أكثر من حرصها على المكاسب الشخصية(٢).

ويلاحظ على الدين هلال أن مفاوضات الوحدة المصرية السورية قد اتسمت بأربع خصائص أساسية :

أولاها : انها تمت فى وقت قصير نسبيا من الناحية الزمنية.

وثانيتها : انها تمت بمبادرة سورية وتحفظات مصرية.

وثالثها : انها تمت فى ظروف سياسية حرجة داخليا وخارجيا.

ورابعها : انها قامت فى بيئة معادية حيث نظر اليها عديد من النظم العربية على أنها تمثل خطرا عليها(٣).

لقدكانت نقطة البدء فى الوعى القومى متقدمة فى سوريا عنها عن مصر، وكان العمل الوحدوى فى سوريا قد قطع شوطا بعيدا، فالوحدة – على حد تعبير البيطار – مرض سورى ..

وبينما كان عبد الناصر يستوعب معطيات القومية العربية كان الفكر القومى فى سوريا والعراق متوهجا وخصبا .. ومع ذلك فعبد الناصر هو الذى سيتوج ذلك النمو والنضال القومى، ويحقق حلم الوحدويين فى الشرق العربى ويقود دولة الوحدة.

عبد الناصر نفسه يعترف بأنه لم يكن مستعدا – تبعا للحسابات

الموضوعية – للدخول في تلك المغامرة، والاستجابة لضغط الطيارين السوريين بقبول الوحدة .. يقول عبد الناصر حول ظروف الوحدة بعد الانفصال ..

"كان رأيي أن الوحدة سابقة لأوانها وأن أقوم باقتراح اتحاد .. وتقوم دولة اتحادية .. كنت أتصور أن نبدأ باقتصاد ودفاع ثقافة وبعد كده نحل المتناقضات ونقيم دولة دستورية"(٤).

ويؤكد محمود رياض مثل هذا الاتجاه في القيادة المصرية وقتها فيرى : "افترض ان توحد القوانين ونظم التعليم ويقام اقتصاد موحد غيره من الامور السياسية التي يجب اتمامها قبل اعلان الوحدة الدستورية .. هذا التدريج كان في رأي مصر هو السبيل السليم لضمان نجاح الوحدة"(٥).

وربما كانت حسابات عبد الناصر العقلانية قد تراجعت أمام عواطفه بتأثير حماس السوريين للوحدة، وكما كان عبد الناصر من ناحية أخرى يخشى من التشكيك في اتجاهاته القومية في حالة الرفض ..

وتحقق ماخشيه المصريون ونجحت التباينات والمتناقضات بين الظروف المصرية والسورية في ان تنال من أهم وحدة حققها العرب في تاريخهم الحديث.

لماذا سقطت دولة الوحدة؟

ربما لايكون تحليل اخفاق تجربة الوحدة المصرية السورية أمرا جديدا، ولكن من المهم التأكيد هنا على استبعاد التفسير الأحادي لحدوث الانفصال..

لقد شاب التجربة أخطاء سياسية وأيديولوجية واقتصادية وادارية، فاذا كان اخفاق الاتحاد القومي في مقدمة الأسباب التي اعتبرها كثير من

المحللين مسئولة عن تعثر الجمهورية العربية المتحدة، فقد فشل التنظيم فى التغلغل بين الجماهير، ونجحت العناصر الانتهازية - باعتراف عبد الناصر، فى التسلل داخلها والسيطرة عليه، فخلت الحياة السياسية من التنظيم الفعال القادر على ملء الفراغ وبقيت الدولة فى الحقيقة معتمدة على التأثير الكاريزمى لعبد الناصر وسحره الشخصى ..

كما حدثت أخطاء ادارية عديدة، وخاصة من جانب المصريين، فلقد أدى الاعتماد على ضباط الجيش فى مهام سياسية وادارية واقتصادية الى تركيز المناصب فى يد طبقة معينة، وانعكس ذلك على أداء العسكريين والموظفين المصريين فى سوريا والذين تعاملوا مع دولة الوحدة والشعب السورى بروح البيروقراطية المصرية المعروفة مما أساء الى العمل الوحدوى ذاته ..

وتشير د. نجاح العطار الى اهتزاز الوعى الأيديولوجى بالعمل من أجل الوحدة.

"ذلك أن القوى الطبقية التى عملت الوحدة، أثبتت عدم قدرتها على صيانتها عندما تحققت عام ١٩٥٨ بين سوريا ومصر، فأنها لم تدرك جوهر هذه الوحدة، ومحتواها الحقيقى، ومقوماتها العميقة، وأصحاب المصالح فيها، والاعداء البارزين والمستترين لها"(٦).

فقد أفتقدت التجربة نظريتها الأيديولوجية المتكاملة والواضحة، برغم عظم المحاولات التى حدثت لتأصيل التجربة.

العامل الاقتصادى كان من اهم العوامل التى حددت مصير الدولة، فأسرعت بنهايتها خاصة اذا ارتبط هذا العامل بالقوى الانتهازية والرجعية ..

فقد منعت البرجوازية المصرية من العمل في سوريا، في حين أصبح السوق المصرى مفتوحا امام البرجوازية السورية .. ثم جاءت قرارات يولية الاشتراكية ١٩٦١، والتى أصر عبد الناصر على تطبيقها على سوريا وقد لاتكون قرارات يوليو الاشتراكية سببا مباشرا فى وقوع الانفصال، ولكن المؤكد انها قد أضافت الى العوامل السلبية فى الممارسة الوحدوية، وخصوصا سلوك العسكريين المصريين فى سوريا، بعد آخر ساعد على توسيع دائرة السخط العام، بإضافة قطاع البرجوازية السورية النشطة الى القطاعات الاخرى ذات المصلحة فى ضرب الوحدة ..(٧)

. لقد تأثرت البرجوازية السورية بعد قرارات التأميم أيضا نتيجة اغلاق الحدود مع الأردن وسوريا والعراق وتطبيق قوانين الاصلاح الزراعى مع قوانين يوليو ١٩٦١، وما ارتبط بها من قيود على الاستيراد وزيادة الجمارك على البضائع المستوردة(٨).

يضيف فاتيكويتس ابعاد أخرى للتناقضات التى أدت الى كارثة الانفصال، الى جانب العوامل السياسية والاقتصادية والعسكرية منها البعد الجغرافى بين شقى دولة الوحدة فى اقليميها الشمالى والجنوبى، ومقاومة العراق لوحدة مصر وسوريا، وذلك تحت حكم عبد الكريم قاسم ..(٩)

وافترض البعض ان فائدة مصر من الوحدة أكبر من فائدة سوريا اقتصاديا، لأنها حولت سوريا الى منتج زراعى فى حين أبقت على مصر كمنتج صناعى(١٠).

وقد حمل جمال عبد الناصر البعث مسئولية خاصة عن فشل الوحدة، وهو

ما دعاه أن يرفض الوحدة مع البعث أثناء مباحثات الوحدة فى ١٩٦٣. "اذا كانت الوحدة مع حزب البعث فأنا لا أريدها، أما اذا كانت مع سوريا فأنا أقبلها"(١١).

ويحمل الطرف الآخر عبد الناصر المسئولية، حيث يعد العامل الأساسى الذى مهد لقيام الانفصال غياب الديموقراطية الحقة دون حماية الوحدة حال دون تصحيح أخطائها، وأدى الى وأدها فى نفوس كثير من الناس، لقد قاد أفول الديموقراطية فى دولة الوحدة حتما الى تعطيل صمامات الامان التى يمكن أن تنقذ الوحدة من التردى فى السقوط(١٢).

وارتبط ذلك النقص فى رأى المفكرين البعثين بغياب التنظيم السياسى، فالنقيصه الكبرى الى شكت منها الوحدة المصرية السورية عند اتمامها هو التخبط فى موضوع التنظيم السياسى اللازم للدولة الجديدة ..(١٣)

والاتهامات المتبادلة بين عبد الناصر والبعث لم تمنعهما من الجلوس للتفاوض عام ١٩٦٣ حول امكان تكرار التجربة .. ومن ذلك كان وعى عبد الناصر على وعى كامل بأسباب الانفصال .. يعترف قائلاً :

لقد وقعنا ناحية وهم خطير .. وهم تصور إمكان المصالحة مع الرجعية على أسس وطنية .. ولقد رأينا فى سوريا كيف تكتلت الرأسمالية والاقطاع والانتهازية مع الاستعمار للقضاء على مكاسب الجماهير ولضرب الثورة الاشتراكية ولاسترداد جميع امتيازاتها ولو بالقوة المسلحة، ولو بإراقة الدماء..(١٤)

وربما أغفلنا فى تحليلنا العوامل الخارجية لإخفاق دولة الوحدة ووقوع

الانفصال بعد ثلاثة سنوات من قيامها وعلى رأسها حصار الغرب لها من ناحية، وإسرائيل من ناحية ثانية، والأنظمة الرجعية الغربية من ناحية ثالثة، كما كان موقف القوى الشيوعية من الوحدة خاصة عند قيامها داخلاً فى الحسبان، ومع ذلك لقد ركزنا على العوامل الداخلية للفشل فى الأساس.. ويرى دكجميان أنه فى مثل هذه الظروف، وأمام هذه التناقضات، فلم تكن جاذبية ومقدرة عبد الناصر الشخصية، وحب الجماهير السورية له كافية لمنع الانفصال.

"فالصانع العظيم للأسطورة - يقصد أسطورة القومية العربية - لم يكن أكثر من حاكم سيئ فى الظروف السورية" (١٥).

دروس الانفصال:

لقد ترك الانفصال آثارا عميقة، ليس على رؤية عبد الناصر القومية للنضال من أجل الوحدة، بل على مسيرة العمل القومى العربى ككل ..

فبالنسبة لعبد الناصر يمكننا أن نحدد تطور الوعى الوحدوى عند عبد الناصر فى المراحل الآتية :

أ- قبل دولة الوحدة:

١- مرحلة وحدة الصف العربى (١٩٥٢ - ١٩٥٦).

٢- مرحلة وحدة الهدف قبل وحدة الصف (١٩٥٧ - ١٩٦٣).

ب- بعد الانفصال:

٣- مرحلة وحدة العمل الثورى من أجل فلسطين (١٩٦٣ -١٩٦٦).

٤- مرحلة وحدة القوى الثورية (١٩٦٦ - ١٩٦٧).

٥- مرحلة وحدة العمل العربي (بعد النكسة ١٩٦٧ - ١٩٧٠).

وتلاحظ مارلين نصر أن هناك تاريخين رئيسين يشكلان مفترق طريق في سياسة عبد الناصر العربية الوحدوية : تاريخ انفصال الوحدة المصرية - السورية في ايلول / سبتمبر ١٩٦١ وتاريخ النكسة بعد الحرب العربية الاسرائيلية في حزيران / يونية ١٩٦٧ وعلى الرغم من اقامة الوحدة الدستورية السورية المصرية فان سياسة عبد الناصر العربية الوحدوية كانت قبيل ١٩٦١ هي الأكثر اعتدالا .. فوحدة الصف التي عمل بها خلال تلك الفترة لم تكن تعني أكثر من سياسة تضامن في مواجهة الاستعمار بين كافة الاقطار العربية، بدون تمييز بسبب النظام، الا انه عام ١٩٦١ وحتى عام ١٩٦٧، أدرك عبد الناصر تحت تاثير الانفصال، دور "القوى الرجعية" الداخلية في تقويض الوحدة المصرية - السورية، فأقدم على سياسة سياسة عربية وحدوية أكثر جذرية، وذلك عن طريق تبني استراتيجية "وحدة النضال" التي تجسدت بمساندة النظام الناصري لثورة اليمن (١٩٦٢). وهكذا انتقد عبد الناصر سياسته السابقة، وقرر - ان تكون من الآن فصاعدا كل سياسة عربية وحدوية خاضعة لمبدأ "وحدة الهدف" غير أن ذلك لم يمنعه من العودة خلال المرحلة اللاحقة بين عامي ١٩٦٣ - ١٩٦٦ الى سياسة تضامن بين كل الأنظمة العربية المحافظة والتقدمية من أجل تنظيم الدفاع العربي تجاه اسرائيل(١٦).

لقد عرض عبد الناصر في المرحلة الممتدة من أذار / مارس ١٩٦٦ الى حزيران / يونية ١٩٦٧ سياسته الوحدوية الأكثر جذرية، فأقدم على تبني

سياسة وحدوية ثورية، ودعا إلى "وحدة القوى الثورية" (فى الوطن العربى خاصة مع تصاعد حصار الرجعية العربية لثورة اليمن .. لقد ربط عبد الناصر بين بناء الثورة العربية (أى تحقيق الاشتراكية) وتحقيق الوحدة العربية .. فعبد الناصر كان يقر الصراع الطبقى وكان يتصوره على مستويين : المستوى الرأسى يدور على الصراع بين القوى الرجعية المتمثلة فى تحالف الاقطاع ورأس المال المستغل وبين قوى الشعب العاملة ويتحتم فيه ازالة القوى الرجعية والمستوى الأفقى يدور على الصراع بين قوى الشعب العاملة وهذا الصراع هو الذى ينبغى أن يكون حلة فى اطار الوحدة الوطنية وعن طريق تذويب الفوارق بين الطبقات.

ومن خلال هذا المفهوم للصراع الطبقى يطرح عبد الناصر قضية الوحدة العربية فهو يرى أن هذه الوحدة لايمكن أن تتحقق الا اذا تحققت الثورة الشاملة فى المجتمع العربى، وهو يعنى بالثورة الشاملة تحقيق الحرية السياسية المبطنة بمضمون اقتصادى أى الاشتراكية(١٧).

وتلاحظ مارلين نصر أن مفهوم الوحدة العربية فى الخطاب الناصرى قد شهد مرحلة ازدهار فى الخطاب الناصرى بين عامى ١٩٦٣/٥٨ أعقبتها مرحلة تراجع بين عامى ١٩٦٣ و ١٩٧٠.

وان منحنى تطور مفهوم الوحدة العربية يتخذ شكلا مشابها لمنحنى تطور مفهوم القومية العربية الا أنه أكثر بروزا(١٨).

لقد كشفت تجربة الانفصال عن آثار هامة، وهى آثار يصعب تحديدها بدقة، غير أن الكثير من الدلائل تشير إلى أن التيار القومى الفكرى الذى ولد

الوحدة وولدته الوحدة بعد ذلك وأغنته يزداد عمقا وغوصا فى الذات يوميا بعد يوم سواء فى مصر أو سورية[١٩] وهى تجربة وحدوية سوف تبقى طويلا أمام النضال العربي ذخيرة غنية بالدروس، حتى عن طريق أخطائها ..

ومن اهم دروس الانفصال ماأعلنه عبد الناصر من أن الوحدة لاتفرض بالقوة أو الاكراه.

ولايجب أن تتم الوحدة بالانقلاب . "ورفضت أن أقبل وحدة بالانقلاب" ولعل هذا يفسر أمر عبد الناصر لقوات الصاعقة المصرية بعدم التعرض بالقوة لقوات الانفصال، آثر انسحابها.

"إن الوحدة هى ارادة شعبية، ولم أرض من جانبى بأى حال من الأحوال أن أحول الوحدة إلى عملية عسكرية، وهذا هو السبب فى اصدار الاوامر بالغاء العمليات العسكرية بالأمس"[٢٠].

كما نجحت الوحدة فى كشف اعداء الشعب العربى، واعداء التيار القومى فكانت مأساة الانفصال نقطة تحول آخرى فى ادراك عبد الناصر لمفهوم القومية العربية وسبيل قيام الوحدة العربية وخصما فيما يتصل بتحديد أعداء الوحدة ..

فقبل الانفصال لم يكن عبد الناصر يعتبر أن للرجعية العربية دورا مستقلا عن الاستعمار الصهيونى والرجعية العربية بوصفها عميلا أو صنيعة للاستعمار[٢١].

كما كشفت التجربة عن أهمية المضامين الاقتصادية والاجتماعية للوحدة، وأن الوحدة تستلزم عملا شاقا وتمهيدا مستمرا لتحقيقها، وان البعد التنموى

للوحدة هو بعد أساسى ربما يسبق البعد السياسى ويفوقه أهمية .. ولم تعد الأدبيات الوحدوية المعاصرة تستطيع ان تتجاهل ربط الحركة القومية ببناء التنمية .. فلم تخل تجربة الانفصال القاسية سنة ١٩٦١ من دروس افادت الحركة الوطنية القومية وصقلتها فقد نبهت الأذهان الى أن الوصول إلى هدف الوحدة لايستلزم مسبقا تحرير الادارة السياسية للمنطقة من قيود الاستعمار وتسلط الرجعية فحسب وانما يفرض فى المحل الأول احداث التحول الاقتصادى والاجتماعى لصالح الجماهير العربية من خلال جهود التنمية الاقتصادية الجادة(٢٢).

ومن هنا نفهم ربط عبد الناصر فى تقييمه لموقف الأنظمة العربية من تحقيق الوحدة الحقيقية بمدى سعيها فى بناء الاشتراكية.

كما لم يعد عبد الناصر متحمسا بعد الانفصال لقبول الشكل الاندماجى للوحدة، بل أصبح أكثر ايمانا بالشكل الفيدرالى لها .. وربما كان التصور الذى قدمه عبد الناصر فى محادثات الوحدة الثلاثية (١٩٦٣) هو آخر تصور مصرى متكامل لمشروع الوحدة العربية(٢٣).

(١) سعد الدين ابراهيم (محرر) : لماذا أصبح عبد الناصر زعيما قوميا (فى المشروع القومى لثورة يوليو) - سلسلة الذكرى الثلاثين لثورة يوليو ١٩٥٢ - المركز العربى للبحث والنشر - القاهرة ١٩٨٢ - ص ٣٢٦.

(٢) خضر عبد العظيم أبو قورة : المد والجزر لتحرير الوحدة العربية فى ثورة يوليو المصرية - (فى المشروع القومى لثورة يوليو) - المرجع السابق - ص ٢٦٨.

(٣) على الدين هلال : تجربة الوحدة المصرية السورية ١٩٥٨ - ١٩٦١ (فى القومية العربية فى الفكر والممارسة) مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٨٠ - ص٤١٤.

(٤) محضر مباحثات الوحدة الثلاثية.

(٥) محمود رياض : حول تجربة الوحدة بين مصر وسوريا، (فى القومية العربية فى الفكر والممارسة) - المرجع السابق - ص ٤١٩.

(٦) نجاح العطار : الوحدة العربية : (فكرا وجذورا ومنطلقات) شئون عربية (الوحدة العربية) - جامعة الدول العربية، ع تونس، ع ٩/٤٣ - ١٩٨٥ - ص٤٠.

(٧) حسن نافعة : الوطنية المصرية القومية العربية فى المشروع القومى العربى لعبد الناصر (فى المشروع القومى لثورة يوليو) - مرجع سابق - ص١٤٥.

(٨) على الدين هلال : تجربة الوحدة المصرية السورية ١٩٥٨ -١٩٦١- مرجع سابق- ص ٤١٧.

(٩) GeorG VATIKOTIS, P.J., Conflict in the Middle East, EAllEN & UNWIN, London,1971, p.97.

Dawisha, A.I., Egypt in the Arab World, Macmillqs,(١٠)
London,1916, p.154.

(١١) محضر مباحثات الوحدة الثلاثية.

(١٢) عبد الله عبد الدايم : تجربة الوحدة المصرية السورية ١٩٥٨ - ١٩٦١ - شئون عربية - مرجع سابق - ص ١٢٣.

(١٣) المرجع السابق . ص ١٢٢.

(١٤) بيان فى ١٦/١٠/١٩٩١.

© Dakmejeiiaan, Egypt Under Nasir, London Universi-١٥)
tys of london press,1972. p50.

(١٦) مارلين نصر : التصور القومى العربى فى فكر جمال عبد الناصر (١٩٥٢ - ١٩٧٠) مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٨١ - ص ٣٩٦.

(١٧) مراد وهبه : مقالات فلسفية وسياسية - مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧١، ص ٣١٠.

(١٨) مارلين نصر : مرجع سابق، ص ٢٨٠.

(١٩) عبد الله عبد الدايم - مرجع سابق، ص ١٢٢.

(٢٠) بيان فى ٣٠ سبتمبر ١٩٩١.

(٢١) حسن نافعة : الوطنية المصرية والقومية العربية فى المشروع القومى العربى لعبد الناصر - مرجع سابق، ص ١٤٦.

(٢٢) أمانى صالح : جذور الفكرة القومية لثورة يوليو (فى المشرع القومى لثورة يوليو)، مرجع سابق، ص ٩٥.

(٢٣) وحيد عبد المجيد : عبد الناصر وقضية الوحدة العربية (فى المشروع القومى لثورة يوليو)، مرجع سابق، ص ٢٢٦.

فى نقد التفسير الكاريزمى لنمو الحركة القومية العربية
(حالة جمال عبد الناصر)

يعد التفسير الكاريزمى لنمو الحركة القومية العربية هو التفسير الأكثر انتشارا فى الأدبيات الغربية والعربية والتى تناولت نمو الظاهرة القومية فى المشرق العربى ومصر خلال القرنين ١٩ ، ٢٠.

وسوف تحاول هذه الدراسة عرض التفسير الكاريزمى، وتأصيله ثم تطبيقه على نمو الحركة القومية العربية خلال الخمسينيات بالتحديد من خلال ارتباطها بقيادة جمال عبد الناصر التاريخية، وتختتم هذه الدراسة بمحاولة أخرى لتقديم تفسير بديل للظاهرة القومية العربية يتلافى عيوب التفسير الكاريزمى الشائع.

١-١ مفهوم القيادة الكارزمية:

ينتسب مصطلح الكارزمية الى ماكس فيبر†Max weber حيث يعنى الشخص الذى يتمتع بمجموعة من السمات التى تصوره شخصا خارقا يتمتع بقدرات غير مألوفة، وينظر إليه من قبل الآخرين من القداسة "ويحاول القائد الكاريزمى بمجموعة من المعاونين والمؤيدين يستمدون منه نفوذهم، وتصبح القيادة الكاريزمية قوة ثورية تصبح الأساس فى اضفاء الشرعية مادامت تلقى التأييد من المناصرين والاتباع[١].

ويرتبط سحر وجاذبية القائد الكاريزمى بقدرته على التوفيق بين المصالح المتعارضة وتوجيه الجماعات المتعددة الى وجهة واحدة لتحقيق هدف مشترك وهو يسعى للتغلغل بين الجماهير والتأثير عليها بوسائل وبية من خلال الاعتماد على الشعبية وتأييد الجماهير واعجابها بشخصيته فتتطابق رغبات الجماهير ومطالبها ورغبات القائد ومطالبه، وبذا يعبر عن الجماهير[٢].

والقائد الكاريزمى – كما يذهب دكمجيان – هو صانع أساطير لاعقلانية، لأنها تعتمد على الحدس والغريزة والعقيدة فى شكلها أو استخداماتها السياسية فالقيادة الكاريزمية والاسطورة مترابطتان بعمق وتشتركان فى الأصل اللاعقلانى والأبعاد الحسية والعقيدة والمشاعر[٣].

والقائد الكاريزمى يتمتع بخصائص خارقة حسبما تراها الجماهير، وهو يتمتع بجاذبية كبيرة وقدوة واسعة على التأثير على الجماهير بحيث تسير وراءه فى ولاء أعمى.

ويمكن للقائد الكاريزمى أن يكون أداة فعالة للتنمية السياسية حين يعمل على تحقيق تكامل الدولة ويصبح رمزا للقومية، وقد يستخدم الظروف العالمية لخلق الهوية وتعبئة الجماهير نحو أهداف التنمية[٤].

ويربط دكمجيان فى تفسيره للقيادة الكاريزميت بين ثلاثة عناصر : السيطرة والقوة الشرعية، ولعله من المحللين السابقين الذين درسوا القيادة الكاريزمية لجمال عبد الناصر فى تحليل واع، وحيث المعادلة القاعدية كما يراها كالآتى :

السيطرة = القوة + الشرعية[٥].

وتختفى السلطة المستندة الى الكاريزمية اذا غاب الدليل على وجودها أو فقدان القيادة الكاريزمية (التاريخية أو الالهامية) لقوتها السحرية. والحكم الكاريزمى لايدار طبقا لقواعد أو تقاليد عامة ولكن طبقا لمبدأ الالهام، مما يجعل القيادة الكاريزمية غير متعلقة وثورية.

والعوامل التى تسمح بظهور القيادة الكاريزمية هى :

(١) موقف أزمة اجتماعية حاد يتسم بالاستجابة الشخصية لتحطيم الآلية القائمة للصراع فى المجتمع، ويؤدى الى خلق شعور عميق بالاعتماد على النفس والتوقعات. وعلى المستوى السياسى يجتاح النظام وقادته ويجتاح ايضا المؤسسات والايديولوجية والبيئة الاجتماعية أزمة شرعية نظرا للشعور بالغربة الذى ينتاب الجماهير.

(٢) ظهور الشخصية يقتدى بها، فبدون هذه الشخصية (الزعيم الكاريزمى) لاتنشأ العلاقة الكارزمية.

فالعملية الكاريزمية لايمكن تصور حدوثها دون توفر الظروف الملائمة.

ويرتبط نشوء الكاريزما كذلك أربعة عناصر متفاعلة فى تصور آخر هى :

الرسالة والأداء والصفات والشخصية "فالقائد يكشف عن ذاته خلال اداء بطولى ورسالة مقدسة وهما يعززان بعضهما البعض، وتعتمد الكاريزما فى أحد جوانبها على ربط القائد نفسه بالرموز المقدسة لثقافة شعبه والاستشهاد بالبطولات والاساطير التاريخية لهذا الشعب بهدف ايجاد رابطة مستمرة بين القائد الكاريزمى والابطال القوميين لشعبه، بمعنى أن يصبح رمزا للقومية وممثلا للبطولة ومعبرا عن الكرامة القومية بما يجعله يتخطى العلاقات

والتناقضات القائمة بين أفراد شعبه وتحقيق نوع من التجانس فيما بينهما(٦).

٢-١ القيادة الكاريزمية لجمال عبد الناصر :

لم تحظ قيادة عربية معاصرة بالمكانة التى حظت بها قيادة عبد الناصر خلال الخمسينيات والستينيات. بل يمكن وضع قيادات تاريخية كان لها هذا التوهج القومى وهى صلاح الدين الايوبى ومحمد على وعبد الناصر، ونسجل ملاحظة عرضية وهى ان القيادات الثلاث ظهرت وتألقت فى مصر.

والواقع أن دور عبد الناصر لم يبرز فى الحياة السياسية ويكتسب حداً كبيراً من الاستقلالية وحرية الحركة وتصبح شخصيته بمثابة "مؤسسة" مؤثرة وفعالة إلا بعد تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦، عندما اكتسب فى المعركة الوطنية رصيدا ضخماً كبطل وقائد وطنى(٧).

ولعل مفهوم القيادة السياسية فى المنطقة العربية يختلف قبل وبعد عبد الناصر، فقد جاء عبد الناصر كزعيم للأغلبية وان عبد الناصر كالأب يملأ كل شئ حوله(٨) .. بل يمكن أن نفهم الناصرية على أنها أول لقاء عربى معاصر بين الزعامة والقاعدة : الزعامة السياسية والقاعدة الجماهيرية الواسعة بامتداد الوطن العربى الكبير، وأصبح عبد الناصر هو الزعيم الوحيد الذى نسب اليه عصر بأكمله، فكان عبد الناصر بطل عصره، وكان عصره أيضا هو حياته ..

ولما يقرب من العقدين كان عبد الناصر الرقم الرئيسى فى مصر والعالم العربى، بل واعتبر أحدهم .. ان الشعب كله كان وكأنه تحت وطأة مغناطيس

هائل، بل اجتاحت الحماسة الوطن العربى كله، فالجماهير وحدها صاحبة الحكم القاطع على مصير الزعامة ..(٩)

وقد تطورت الحركة القومية العربية، واستفادة من كاريزمية عبد الناصر، ويتطرف البعض – مثل جاك بولين –الى حد القول بأن القومية العربية نتاج ناصرى ولولا شخصية عبد الناصر لما كانت هناك قومية عربية(١٠).

وهى مبالغة غير علمية، تفتقد النظرة التاريخية لتطور النضال القومى، وتتغافل عن ازدهار الفكر القومى فى الشام والعرب منذ نهاية القرن الماضى، فالقومية العربية – بطرحها الايديولوجى الحديث – أقدم من عبد الناصر، بل ودفعته لتضعه فى طليعة قيادة هذه الحركة.

ونظرية الزعامة الناصرية – كما يذهب مطاع صفدى – انما "تنسجها انجازات الرجل فى رفعة شعبه وأمته"(١١).

وتوضح نجاح العطار هذه العلاقة فى رؤية تختزل الحسى إلى ماهو جوهرى حيث ترى أن هذا التفاعل بلغ مداه الأعلى مع الرئيس جمال عبد الناصر، الذى أعطى للدعوة القومية حينما وصل الى السلطة دفعة قوية نقلتها إلى مستوى الجماهير، فصارت الايديولوجية القومية، وما فيها من شعور عربى بالتميز، ومن طموح الى الوحدة العربية، مدار نضال سياسى قومى سار فيه الوطن العربى من المحيط الى الخليج(١٢).

وهكذا فقد ساهمت فكرة العروبة والقومية العربية فى تكوين الكاريزمية الناصرية والتى تعدت حدود مصر الى عديد من الدول العربية(١٣). عمل هذا الارتباط المزدوج بين الوعى والزعامة، فأستحال مولد أى منهم بدون مولد

الآخر، فتأخر ظهور الزعامة الصحيحة والوعى الصحيح هذا الوقت الطويل، تأخر طيلة مدة قرن ونصف قرن من بعد تجديده الحياة العربية، ذلك التجديد الذى تشكل حملة نابليون على المشرق علاقة رمزية وفعلية له(١٤).

كان ذلك التشبث الجماهيرى الهائل بشخص عبد الناصر فى جميع أقطار العروبة ويعنى انتقاء للمبدأ الذى مثله هذا الانسان منتصراً أو مهزوماً، وهو مبدأ الهوية القومية النهضوية الذى جسده عبد الناصر فى أمة العرب من فوق حدودها ومسافتها واختلافاتها وانحطاطاتها. وبالمقابل كان حرب الوحدة ثم هزيمة مصر ثم مقتل عبد الناصر؟ يشكل فصولا متتابعة للانتقضاض على هذه الهوية وطمس مشروعاتها واخترا ع مركزية قيادة الشخصية من عبد الناصر ومركزية قيادته القومية فى مصر(١٥).

ويشير فاتيكويتس أنه طيلة الخمسينيات ولمدة عشر سنوات بعد ثورة الضباط الاحرار في مصر كانت القومية العربية متأججة بسبب الشخصية القومية لناصر ..

فمكانته ونجاحاته ومقدرته ساعدت على استخلاص أقصى فائدة من الحرب الباردة فى الخمسينات ثم طبيعته كقائد سياسى(١٦).

وان كنا نلاحظ ان فاتيكويتس يركز على النمط الأسيوى للانتاج ودولة النهر من عوامل تساعد على التركيز من شخصية الزعيم معتبراً عبد الناصر هو المدخل الصحيح لفهم السياسة المصرية فى عصره ومشير بدرجة أضعف بكثير إلى دور العناصر الأخرى : السياق التاريخى والبنى الاجتماعية.

هذا اللقاء بين العصر والزعيم، يفسر بصيغة أخرى "فقد كان عبد الناصر

مثيرا وموحدا للموحدات الحضارية الكبرى - فى رأى سعد الدين ابراهيم - فى الوطن العربى، وفترات المد والصعود فى هذا الوطن محكوما بظهور القائد القادر على استثارة وتحريك هذه الموحدات الكبرى : أمجاد الماضى وأصالته، امكانيات الحاضر المادية والروحية، ورؤية المشروع القومى الوعد بمستقبل زاهر(١٧).

غير أن للزعامة مبرراتها ايضا وليست مجرد قدر تاريخى، أو مسألة ظروف ورغبة جماهيرية .. الزعامة هى عمل وخدمة وانحياز وتوجه وممارسات استطاع عبد الناصر، بتنفيذه عددا من الاجراءات، أن يمثل أغلبية الشعب تمثيلا صادقا وأن يدافع عن الامانى القومية دفاعا حقيقيا، واستطاع بواسطة ذلك أن يتحول الى رمز للحركة الوطنية المعاصرة فتبايعة عبر هذه الحركة أغلبية العرب بزعامة لم يحصل عليها من قبل أى زعيم أخر، لامن حيث أتساع أفقها وشمولها، ولا من حيث نوعيتها، أنها حاصل إدراك الشعب أدراكاً لاتمويه فيه ولاأرغام(١٨).

وهكذا قد كان تغلغل عبد الناصر فى عقول جماهيرة واحساسه بألامها وامالها وتعبيره عن مطالبها من العوامل الهامة التى كفلت الاستقرار للنظام الذى أوجده رغم كل الصعاب التى اعترضته، وذلك لاقتناع الشعب بالرسالة التى توجت بها الرئيس عبد الناصر وما تنطوى علية هذة الرسالة من رموز كالكرامة الوطنية والعدالة الاجتماعية والقومية العربية والتنمية والعداء للاستعمار والصهيونية(١٩).

ولقد أدت القيادة الناصرية الى وجود احساس بالتضامن والتجانس لد

المصريين والعرب وأوجد لديهم اعجابا مشتركا بهذا القائد الذى أعاد لهم عزتهم وكرامتهم القومية، فالتفوا حوله وأيدوه. ومن هذه الزاوية كان عبد الناصر مصدرا للاستقرار السياسى، ولقد كان يمثل القائد التاريخى الذى يتوجه الى الجماهير برسالة القومية العربية والمعبر عن العزة والكرامة القومية والتمتع بقدر من الشعبية لم يتحقق لأى زعيم عربى آخر(٢٠).

٢-٢ السياق التاريخى :

يعتمد فهمنا لنمو الظاهرة التاريخية على استيعاب حركة السياق التاريخى، وقوانينه، وقواه الفاعلة .. ولفهم التفاعل بين القيادة الناصرية والظاهرة القومية العربية. كانت الخمسينيات هى عصر التحرر الوطنى للعرب والعالم الثالث، وجاءت حقبة عبد الناصر فى تلك المرحلة الانتقالية التى كانت ظروفها الموضوعية على حالة تسلم وتسليم بين مدرسة الاستعمار الاوروبى التقليدى والاستعمار الحديث ذى الوجه الامريكى. وكان يمكن لهذه المرحلة ان تتم بالطريقة الاسهل التى تمت بها مراحل انتقالية كثيرة لشعوب جنوبى شرقى آسيا، ولولا أن يقظة العرب جمدت تلك المرحلة، وحاولت ان تحقق عملية التسليم والتسلم لصالح تحررها واستقلالها الوطنى القومى الشامل.

وجاءت ممارسة عبد الناصر لترمز الى الحالة التاريخية الجديدة الفترة فى حالة القطعية مع الاستعمار القديم كليا، والدفاع العام ضد عودة الاستعمار الجديد(٢١).

وقد تحركت القيادة الناصرية فوق عدة محاور متأثرة بالسياق التاريخى الذى ظهرت فيه. فعبد الناصر لم يكن نسيج ذاته أو قائما بذاته، بل هو نسيج

مرحلة في تاريخ امتنا، وأيا ما كانت ثغراتها، فلقد كانت مرحلة نهوض وتقدم. وعبد الناصر اذا جسد صورة نموذجية للرجل التاريخي، كما هو الأمر بالنسبة للرجال التاريخيين العظام الذين برزوا فى حياة الأمم وكان لهم دورهم التاريخى، فإنه لم يأت استثناء بل تجاوبا مع ظروف أمة وتلبية لحاجياتها وتعبير عنها، وكما قال عبد الناصر ذاته "ماأنا إلا تعبير عن القومية العربية فى مرحلة من حياة الأمة"(٢٢)

وجاءت قيادة عبد الناصر مع استعادة التاريخ العربى لوحدته الضائعة وبقدر ماعاون فى الولادة الجديدة لهذا التاريخ، من خلال علاقتة المتميزة بالجماهير(٢٣).

فعندما جاء عبد الناصر الى المسرح السياسى كان المسرح مستعدا لاستقباله ونظرت الية الجماهير باعتبارة المنقذ أو المخلص وخاصة فى ظل تدهور الاوضاع الداخلية وتفشى الفساد والفقر وهزيمة ٤٨. وقد تحركت القيادة الناصرية محاولة أن تستوعب هذا السياق التاريخي المعقد، ومحاولة بآليات ساذجة حينا، ومتقدمة حينا اخرأن تتفاعل معة. فعلى محور الصراع الاجتماعى والطبقى، وعلى محور الصراع الوطنى القومى العربى، وعلى محور الاستعمار بأشكالة التقليدية والامبريالية الجديدة، على هذة المحاور الثلاثة صاغت الثورة الناصرية حركتهاالتاريخية. ولكن عبد الناصر فى اطار الواقع التاريخى والجغرافى والسكانى لمصر، وفى اطار معطيات الواقع العربى وتواصل التجزئة القائمة بين اقطاره واختلاف أطوارها فى التقدم والتحرر واختلاف نظمها، وفى مواجهة ذلك الواقع المتجسد بقيام الكيان

الاسرائيلى الاستعمارى الاستيطانى المدعم بالحلف الامريكى الصهيونى العالمى، أراد أن يجعل من مصر القطرالعربى الاكبر والاكثر تقدما فى اندماجه الوطنى وتطوره الاجتماعى والثقافى وكذلك فى موقعه الاستراتيجى والدولى(٢٤).

لقد كان الاحتلال الانجليزى لمصر بمثابة الحصار الجهنمى لدور مصر العربى، حتى أقبلت ثورة ٢٣ يوليو بقيادة عبد الناصر، وكان أول حاكم مصرى فى العصر الحديث يشير الى هذا الحصار، ولم تكن ثورة ٢٣ يوليو مجرد رد فعل للأحداث الداخلية فى مصر التى تفجرت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وربما كانت أيضا من أحدى الزوايا رد فعل لحدث عربى خطير هو الحرب العربية الاسرائيلية الأولى التى انتهت بمأساة ١٩٤٨(٢٥).

ولهذا ينبغى أن تعاد قراءة شخصية جمال عبد الناصر، فعند ظهوره كانت الجماهير العربية تظن أن متاعبها الاجتماعية سوف تنتهى عندما تنال الاستقلال السياسى تسعى نحو الوحدة العربية، ان هذه الفكرة المختصرة تحولت الى ايديولوجية عامة، واذا بدا عبد الناصر بأنه المحقق لهذه الامنية وكأنه المخلص، فان هذه البنية الايديولوجية قد تلبسته وقد قبلها عبد الناصر وبالفعل سعى عبد الناصر وظل يعمل حتى الرمق الاخير ليحققها.(٢٦)

لقد وصلت الناصرية بالنضال العربى ضد السيطرة الخارجية الى أعلى ذروة وبالتحديد استخدمت قيادة عبد الناصر امكانات مصر فى تصفية علاقات التبعية التى كانت تربط قسما كبيرا من الوطن العربى بانجلترا أو فرنسا.(٢٧)

ويلخص ستيفن تأثر الظاهرة القومية بالسياق التاريخى عند عبد الناصر "فقد كان عبد الناصر متأثرا أعمق التأثر بالسياق التاريخى والحضارى الذى يتحرك فيه.

لقد كان مصريا، عربيا، مسلما، ولكنه كان ايضا وفى نفس الأساس ثائراً من ثوار العالم الثالث. لقد كان نتاجا ومحركا فى نفس الثورة المعادية للاستعمار والامبرالية التى أفرزت نهرو، وماوتسى تونج، وسوكارنو، وكاسترو، وهو شئ منه.(٢٨)

٢-٣- تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦:

الكاريزما تحتاج الى انجاز كبير، الى عمل خارق يرتبط بتطلعات الجماهير ويستمد شرعيته منه.

وقد مثل تأميم عبد الناصر لقناة السويس ذلك الانجاز.

ويمكن الذهاب الى أن قيادة عبد الناصر القومية قد تبلورت مع تأميم قناة السويس فكانت معركة السويس هى التى وضعت مصر الناصرية فى مركز قيادة حركة القومية العربية وحركة الوحدة العربية. وبقيادة عبد الناصر للحركة القومية تحول الفكر القومى والعمل الوحدوى الى تيار شعبى هائل من المحيط الى الخليج.(٢٩).

وكان تأميم القناة عام ٥٦ هو أول رد عربى كبير على هزيمة ٤٨ وخاصة اذا لاحظنا ان هزيمة ٤٨ المشينة قوضت شرعية النظام الملكى فى مصر والنظم الاخرى فى دول المواجهة العربية.

لقد عزف عبد الناصر- دون أن ينتبه- على اللحن المميز لدى الجماهير

العربية وهو لحن العزة القومية والذى ينبعث دائما من الاحتكاك بالاستعمار الغربى والمساس بسطوته وهيبته، ولذا فقد ضخم تأميم القناة من نزعة الكرامة القومية بين ملايين العرب، ويشير دكمجيان الى هذه الحقيقة.

"ففى ضوء الكراهية شبه الكاملة بين العرب للغرب، فان أهم قضية يمكن أن يحتضنها زعيم واع هى سياسة معاداة للغرب. ولقد أممت القناة فى وقت يتعاظم فيه شعور الاحباط لدى العرب فى أوائل الخمسينيات دليلا على مقدرة عبد الناصر النفسية على توقيت المعارك".(٣٠)

ويمكن اعتبار كسر حصار الاسلحة وتأميم قناة السويس مدخلا موسوعيا لنظرية العمل الناصرى، اذا كان هذا المدخل يربط الوطنى بالقومى، وهى تلك السمة التى لم تكن حركة التحرر الوطنى العربية قد استطاعت بعد أن تحققها، فقبل هذين الحدثين كانت مكافحة الاستعمار تتم ضمن الدولة القطرية منفصلة عن بعضها.(٣١)

ويقترب منج الصلح من هذا المعنى، حيث يعد من انجازات عبد الناصر مساهمته الكبرى فى اخراج الوطنية من حدود الاقطار الى حدود الوطن العربى ككل ومساهمته كذلك فى اخراج التحرر العربى من الاطار القومى الخاص الى الاطار العالمى.(٣٢)

ومثلما كان التأميم استقلالا اقتصاديا فقد كان تمهيدا لتحرر قومى شامل أوقد النيران فى شرايين العرب من المحيط الى الخليج ولم يصبح عبد الناصر قائدا للثورة العربية الا منذ تلك اللحظة.(٣٣)

لقد التقط المشرق العربى الرسالة الناصرية التى وجهتها قضية تأمين

القناة، وفضضت محتواها ومالبث أن تجاوبت معها فى اجماع قومى شامل.

نجح اذن تأميم القناة، وماتلاها من عدوان ثلاثى التفاف العرب حول قيادة واحدة هى قيادة عبد الناصر فى مصر ونقلت عبد الناصر الى ملعبه الحقيقى بامتداد الامة العربية وليس الساحة المصرية وحدها.

وبالفعل كانت معركة السويس نصرا سياسيا ونفسيا وحضاريا، وأبرزت المعركة الرباط العضوى بين الوطنية المصرية والقومية العربية وعمدت المعركة عبد الناصر زعيما للعرب بلا منازع ومن ذلك الوقت أصبحت الامة العربية لا تصغى الا لقائد واحد حتى لو استمعت لعشرات من منافسية.(٣٤)

٢-٤ موقع مصر :

يلعب الموقع دورا هاما فى النموذج المعدل لتفسير الظاهرة القومية. فالقيادة الكاريزمية بناء على هذا النموذج لاتبزغ فى أى بلد، بل يشترط أن تظهر فى دولة الاقليم/ القاعدة والتى تتمتع بموقع حيوى وكثافة بشرية عالية وقدرة كبيرة على التأثير فى صناعة القرار فى منطقتها.

وقد وفرت مصر لقيادة عبد الناصر الكاريزمية كل هذه الشروط. فلا شك أن أنتماء عبد الناصر الى بلد كمصر افادة من عدة نواح، مصر أكبر الدول العربية فى عدد السكان وفي الامكانات وأشهرها فى المجال الدولى وأعرقها فى التاريخ وأكثرها تمرسا فى الاستقلال وأقدمها فى اثبات الوجود عالميا. وهى قاعدة الوطن العربى سياسيا وحضاريا ونفسيا وتقنيا وفنيا. وتحتفظ باعتبار خاص فى نفوس العرب لايتوفر لأى اقليم عربى آخر من الناحية السياسية والنفسية، حتى ولاالمدن ذات الاماكن المقدسة. كانت مصر- بتعبير

أنيس صايغ- قاعدة التعليم والثقافة والفكر والطباعة والنشر منذ القرن ١٩.
وكانت قاعدة التحرر العربى والعمل القومي منذ أيام العثمانيين ثم ترسيخ دورها العربى السياسى والتحررى من بعد تأسيس الجامعة العربية وخروج وادى النيل من عزلته العربية خلال الحرب العالمية الأخيرة، وفى أعقابها فى حرب فلسطين خاضت القتال بأكبر جيش وتحملت أكبر الخسائر وشغلت قواتها أوسع ميدان، وكان دورها فى القضية الفلسطينية منذ ٤٨ هو الدور الرئيسى. هذه الاعتبارات وأمثالها جعلت لأى حاكم لمصر مكانة خاصة بين الحكام العرب.[٣٥]

لم تكن صدفة أذن أن تكون مصر دون غيرها القاعدة الرئيسية لما نسمية النهضة العربية الحديثة، قاعدة للنهضة نعم، لكنها النهضة العربية والإسلامية.[٣٦] ولم يكن الدور سهلا وميسرا فى كل الاحوال، بل كان مليئا بالمعاناة والتضحيات والتى تجاوزت فى جانبها البشرى- مائة ألف شهيدا سقطوا فى الصراع ضد الخطر الصهيونى- ناهيك عمن سقطوا على أرض اليمن. ولقد جاءت الناصرية تطرح فى آن واحد حتمية وصعوبة قيادة القطر المصرى لمجموع الوطن العربى.[٣٧]

ويلاحظ سعد الدين ابراهيم أن ميزة مصر كقاعدة للقيادة، قد يكون شرطا ومع ذلك ليس شرطا كافيا لكي يتحقق هذا الاخير، فلابد من ادراك ابعاد الازمة الحضارية للعرب ولابد من صياغة استجابة مقنعة لهذه الأمة، 'بد من توصيل هذه الاستجابة للملايين العرب، والايحاء لهم بانها استجابة

فاعلة وقابلة للتنفيذ. هنا اعتقادنا أن عبد الناصر قد نجح في استيفاء كل هذه الشروط.(٣٨)

وربما وعى عبد الناصر فى فلسفة الثورة- الى حد ما- لعبة الدوائر التى تشكل مصر مراكزها- بدرجة ما- فكانت الدائرة العربية هى احدى هذه الدوائر مع الدائرتين الافريقية والاسلامية، وان لم يترجم هذا الوعى عمليا الا بعد تفعلات تأميم القناة.

واذا كانت مصر هى- دوما- قوة المجابهة الرئيسية فى الصراع العربى الاسرائيلى، فان سوريا هى خط الدفاع الاول عن مصر وفلسطين هى خط الدفاع الثانى وسيناء خط الدفاع الثالث، فهل عندما انحاز عبد الناصر عام ٥٨ الى نداء حيفا وسوريا الوحدويين، وشعبها من وراءهم كان يعى القوانين الجيوسياسية الأساسية فى المنطقة.

وكما يقول جمال حمدان (مصر مفتاح العالم العربى اذا سقطت سقط، واذا فتحت فتح).(٣٩)

وهو ما يرشح مصر في المستقبل للعب الدور المركزى فى أى مشروع وحدوى مؤثر فى الوطن العربى ثنائى أو جماعى يستهدف تحقيق الدولة الوحدوية.

٣ -١ التفسير البديل :

تحتمل الظواهر الاجتماعية لرؤية واسعة تفرضها طبيعة هذه الظواهر من حيث تعقدها وتشابكها وتداخل عنصرها المؤثره. وقد تخطى الفكر العلمى مرحلة التفسير العلمى الآحادى فى دراسته للظاهرة الاجتماعية- يوفر أمام الباحث الاجتماعى مساحة أوسع وأعمق وأدق للعمل.

والظاهرة القومية باعتبارها احدى الظواهر السوسيولوجية يجب أن تخضع لهذا التفسير المتعدد، ولذا فربط نجاح الظاهرة القومية العربية فى الخمسينيات والستينيات وانحسارها بعد ذلك.. بالقيادة الكاريزمية التى مثلها عبد الناصر يسقط من الإعتبار جوانب فاعلة هامة وتبتسر من محاولة الرؤية والفهم عوامل متعددة الأهمية والنموذج المقدم يوفر تفسيرا مبدئيا بديلا لفهم الظاهرة القومية العربية ويتسع لجملة من القوى الفاعلة المؤثرة فى هذه الظاهرة.

ويلاحظ أن النموذج المرفق يحدد ثلاث قوى أساسية يمكنها أن توفر فنهما دقيقا للحركة القومية العربية وهى:

١- تاريخية الظاهرة : تطورها التاريخى وحركتها الزمنية الجدلية المتواصلة.

٢- الواقع الاجتماعى : ويدرس شكل وطبيعة البنى الاجتماعية القائمة، وتوزيع الثروة وملكية وسائل الانتاج ومايترتب عليه من بنى قومية متواترة ومتعاكسة التأثير على البنى التحتية، وطبيعة العلاقة بين الطبقات الاجتماعية.

٣- القايدة الكاريزمية : وهى تزدوج فى تحليلها الى الصفات الشخصية للقائد السياسى الذى يلعب دورا مؤثرا فى مسار النضال القومى، والثانى دور الموقع الذى تظهر فيه هذه القيادة الكاريزمية ومدى توفر جملة من الشروط فى الدولة/ القاعدة ربما وفر لنا دراسة حالة مصر فى الصفحات السابقة فهما لهذه العلاقة وتأثيرها على نجاح تلك القيادة التاريخية.

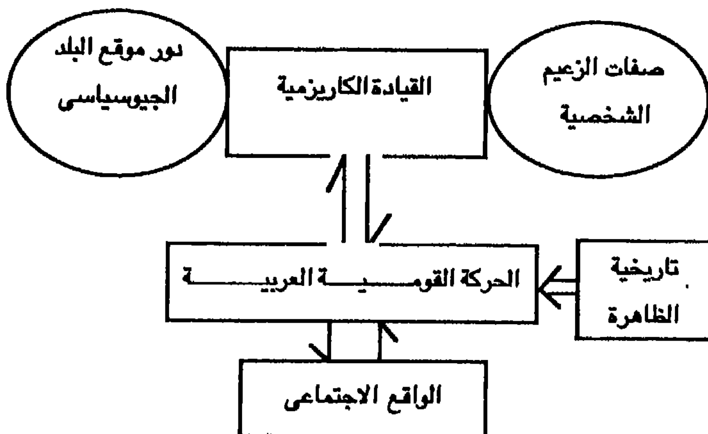
ان اتجاه حركة الواقع الاجتماعى العربى والنامى نحو التعددية السياسية

والمشاركة الجماهيرية الواسعة وتوفير الممارسة الديمقراطية الحقيقة يجعل من تعددية مراكز القرار السياسى فى المجتمع وجدية التمثيل الشعبى الحقيقى بديلا مناسبا وموضوعيا عن القيادة الفردية والسلطة الاحادية للزعيم الملهم أو الزعيم المنفرد.

وهذا التفسير البديل- الذى يتلافى عيوب التفسير الأحادى للظاهرة القومية- يؤدى بنا الى فهم أفضل لصعود المسار القومى فى الوطن العربى فى الخمسينيات والستينيات، ويجعلة محصلة لتراكمات متصلة من الأطروحات الفكرية والممارسات المتصلة وتنامى الوعى بالحقيقة القومية العربية، وبالتالى يؤدى هذا الاطار بنا الى فهم القيادة القومية لجمال عبد الناصر ضمن اطار صحيح ربما فسرته الدراسة الراهنة ومن خلال علاقة التقاطع بين الرجل والظاهرة القومية (بعناصرها الثلاثة المؤثرة) وليس كما ذهب فاتيكوتيس، ودكمجيان وبعض الباحثين العرب، كما يذهب أحدهم خطأ الى أن "الحركة العربية اعتمدت على العنصر الشخصى الكارزماتى لجمال عبد الناصر الذى لم تكن له ايديولوجية واضحة المعالم قبل أن يتولى السلطة فى مصر"(٤٠) ويبدو أن ذلك الرأى ترديد لبعض المراجع الاجنبية التى شوهت حقيقة الحركة القومية العربية وردتها الى القيادة الكارزمية لعبد الناصر متجاهلة علاقة التاريخ الواقع، أو التطور التاريخى للظاهرة القومية ومن خلال جهود الافراد والجماعات القومية كمفكرى البعث والقوميين العرب وغيرهم فى الشام والعراق ومصر والذين مهدوا الطريق لصعود الوعى القومى الى مداه البعيد قبل أن تأتى قيادة عبد الناصر وتترجم الخطاب القومى الى واقع عملى وحدوى حى

تراه وتعيشه الجماهير بعد أن كانت تسمع عنه فقط، فعبد الناصر كان تلميذا مجدا فى مدرسة القومية، استوعب دروسها وانصاع لتيارها الدافق، وان استغرق الامر منه الى حوالى الخمس سنوات ليعى ذلك، ولكن ليعطى للنضال القومى أهم صفحاته فى تاريخ العرب الحديث، وهى وحدة مصر وسوريا (٥٨- ١٩٦١)، ولعل عمليته غفرت له وللمصريين تأخر تطور الوعى القومى بالمقارنة بواقعة فى الشام والعراق، وحيث كانت للقضية الوطنية المصرية الصداره لعشرات السنين فى حين كان الخطاب القومى مفردة يومية فى الشارع السياسى العربى فى الشام والعراق.

وربما يفرض علينا الموقف العلمى، والامانه للنضال القومى، ألا نجلس طويلا مطرقى الرؤوس فى انتظار القيادة الكارزمية القومية، فمصائر الأمم تدار بطريقة مخالفة بالتأكيد.



♥النموذج البديل لتفسير نمو الحركة القومية العربية

(١) †Max Weber: Economy and Society, Bedmister press, New york,1968, p241.

(٢) Rebert Clark: Development and instability, N. y. ted-dry den press,1974, pp228-230.

(٣) R, Dokmejien:Egypt Under Nasser: Astudy in Politcal Dynamics, press Ltd uniersity of London,1978, p56.

(٤) اكرام عبد القادر بدر الدين : ظاهرة الاستقرار السياسى فى مصر، (٥١ - ١٩٧٠)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، القاهرة ١٩٨١، ص ٥٨.

(٥) Dokmejaen; op. cit, p10.

(٦) ثروت زكى مكى : النخبة السياسية والتغيير الاجتماعى فى مصر (٥٢ - ١٩٦٧) رسالة ماجيستير غير منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، القاهرة ١٩٧٣، المقدمة.

(٧) هانى الزغبى : مسألة البنية التحتية للقضية القومية واتجاه قانون القيمة فى العالم العربى، مطابع الكرمل الحديثة، بيروت ١٩٨٢، ص ٣٢٩.

(٨) احمد خليفة : الرأى بالرأى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥، ص٣١.

(٩) المصدر السابق، ص ٣٣.

(١٠) جاك بولين : مع القومية العربية، ترجمة نجدة هاجر وآخر، كتاب الملايين المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ٥٩، ص ١٣.

(١١) مطاع صفدى : الفكر القومى والممارسات الوحدوية لثورة يوليو، ندوة ٢٣ يوليو، قضايا الحاضر وتحديات المستقل، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٨٦.

(١٢) نجاح العطار : الوحدة العربية فكرا وجذورا ومنطلقات

مجلة شئون عربية، جامعة الدول العربية، سبتمبر ١٩٨٥، ص ٣٣.

(١٣) A.I. Dawisha, Egypt in the Arab world, the Elementary of foreign policy, the Macwillan press london,1970, p130.

(١٤) انيس صايغ : من فيصل الاول الى جمال عبد الناصر، منشورات جريدة المحرر والمكتبة المصرية، بيروت ١٩٦٥، ص ١٥٤.

(١٥) مصاوع صفدى : مصدر سابق، ص ٢٩.

(١٦) P. J. VATIKOTIS: Conflict in the Middle East, p19.

(١٧) سعد الدين ابراهيم : لماذا كان عبد الناصر زعيما قوميا:؟، المشروع القومى لثورة يوليو، سلسلة الذكر الثلاثين لثورة يوليو، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٢، ص ٣٢٦.

(١٨) انيس صايغ : مرجع سابق، ص ١٥٧.

(١٩) Michael Hudson: Arab Politicis, the search for Lejitimacy, New Haven, yale University press,1977, p243.

(٢٠) اكرام عبد القادر: مرجع سابق، ص ٦٥، ٦٦.

(٢١) مطاع صفدى : مصدر سابق، ص ٢.

(٢٢) جمال الاتاسى : عبد الناصر والتجربة الثورية، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٨٣، ص ٣٣.

(٢٣) منح الصلح : عبد الناصر والجماهير العربية، ندوة ثورة ٢٣ يوليو : قضايا الحاضر وتحديات المستقبل، القاهرة ١٩٨٦، ص ٧.

(٢٤) جمال الاتاسى : عبد الناصر والتجربة الثورية، ص١٥.

(٢٥) غالى شكرى : عروبة مصر وامتحان التاريخ، طـ ٢، دار الافاق الجديدة، بيروت ١٩٨١، ص ٨٠.

(٢٦) هانى الزغبى : مسألة البنية التحتية للقضية القومية واتجاه قانون القيمة فى العالم العربى، ص ٣٢٣.

(٢٧) عادل حسين : نحو فكر عربى جديد، دار المستقبل، القاهرة ٨٥، ص ١٩٠.

(٢٨) Robert Stephens, Nasser, Allenlane, the Pang uin press, London,1971, p9.

(٢٩) سعد الدين ابراهيم : مصر تراجع نفسها، دار المستقبل العربى، القاهرة ٨٣ ص ٢٥١.

(٣٠) Dokmejiaen, op, cit, pp42-43.

(٣١) مطاع صفدى : مرجع سابق، ص ١١.

(٣٢) غالى شكرى : مرجع سابق، ص ٨٢.

(٣٤) سعد الدين ابراهيم : لماذا كان عبد الناصر زعميا قوميا، مصدر سابق، ص٢٨٢.

(٣٥) سعد الدين ابراهيم : مصر تراجع نفسها، ص ٢٥٢.

(٣٦) غالى شكرى : عروبة مصر، ص ١٣٥.

(٣٧) منج الصلح : مرجع سابق ص ٧.

(٣٨) سعد الدين ابراهيم : مصر تراجع نفسها، ص ٢٧٧.

(٣٩) جمال حمدان : استراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق، ص ٢٣٨.

(٤٠) محمد نعمان جلال : التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧، ص ١٤.

أرنولد توينبى والوحدة العربية

"سوف يحقق العرب وحدتهم عام ١٩٧٤".

توينبى – ١٩٦١

قد يكون المؤرخ الانجليزى الكبير أرنولد توينبى ١٨٨٩ – ١٩٧٥ صاحب أكبر مكانه حققها مؤرخ غربى فى مجال فلسفة التاريخ ومنذ هيجل واشبنجلر .. لقد عدت نظرية توينبى المفسرة لحركة التاريخ والمعروفة باسم "التحدى والاستجابة" نتاج دراسة طويلة حلل فيها عوامل ازدهار وانحلال ٢١ حضارة فى تاريخ البشرية، ولم يتبق منها الا ٤ حضارات (منها الحضارة العربية الاسلامية) .. وافترض توينبى أن تاريخ البشرية عبارة عن سلسلة من التحديات يليها سلسلة من الاستجابات المناسبة، وهذه العلاقة الدينامية المعقولة فى شدتها هى التى تحافظ على حيوية المجتمع.(١)

وقد كان لتوينبى موقف متفهم من الحضارة العربية الاسلامية، كما كان له موقف مشرف من الصراع العربى الاسرائيلى، وقد ندد بالصهيونية فضح أيديولوجية وممارساتها مما عرضه للكثير من المتاعب مع القوى الصهيونية فى الغرب.

ولقد زار توينبى القاهرة عام ١٩٦١، والتى فيها أربع محاضرات(٢) وفى

منتصف الستينيات صدر كتابه (من النيجر الى النيل) والذى ترجم الى العربية باسم (الوحدة العربية آتيه)(٣) عام ١٩٦٨.. وذهب توينبى فى هذا الكتاب الى أن العرب سينجزون وحدتهم بحلول عام ١٩٧٤.. وقارن الوحدة العربية بالوحدة الألمانية والوحدة الايطالية والتى بدت مهيمنة عام ١٨٤٩ الى أن تحققت بالفعل عام ١٨٧١م أى بعد فشلها بحوالى عشرين عاما.. فتحقق توحيد المانيا وايطاليا، واستغرقت عملية التوحيد ٥٦ سنة..

أما بالنسبة للوحدة العربية، فقد حسبها توينبى على أساس مضى ٥٦ سنه من نهاية الحرب العالمية الأولى، ومن ثم فقد استنتج أنه "على هذا الاساس يكون للعرب من الوقت حتى سنة ١٩٧٤ كى ينجزوا وحدتهم بنفس سرعة الألمان والايطاليون ولايمكن حتى لأعداء العرب أن يضمن وحدتهم لن تكون أنجزت فى ذلك التاريخ"(٤)

ويمكننا أن نسجل تعجبنا المبدئى من الخلط الذى وقع فيه المؤرخ الكبير عندما حاول أن يطبق حالة تاريخية معينة على ظروف ثقافة مختلفة، بل وأن يقيس الفترة اللازمة لتحقيق الوحدة العربية مساوية لنفس الفترة التى تحقق فيها وحدة ايطاليا وألمانيا.. ولهذا فلن تأخذنا الدهشة كثيرا عندما نلاحظ عدم تحقق الوحدة العربية فى نفس التاريخ الذى حددة توينبى (١٩٧٤) بسبب اختلاف الظروف والوقائع السابق الاشارة اليه، وان كنا نسجل هنا ملاحظة عرضية (فثمة تضامن عربى نسبى قد تحقق فى أعقاب تفجر حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى توقيت مشابه لتوقيت توينبى المذكور، الا أنه كان يقصد

الوحدة العربية بالمعنى التاريخى السياسى وليس بالشكل المرحلى الذى تم).

ويمكننا أن نجد اتجاها آخر يمثله محلل غربى هو بولين الذى وجد أن المناخ السياسى فى الوطن العربى فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى كان مناخا معاديا للوحدة، على عكس مايذهب توينبى، وانها كانت تسير فى طريق يبتعد عن تحقيق الوحدة العربية بسبب مصالح الحكام وشيوع مناخ التجزئة.. يقول بولين "ان الدول العربية التى نشأت بعد الحرب العالمية الأولى قد اشتد عودها وتغلغلت النزعة الاستقلالية القطرية فيها.. وكثيرون من قادتها الذين يتربعون على الكراسى يأبون أن يفرطوا بالشخصية المتميزة لدولهم فى شخصية دولة واحدة أشمل الجميع"(٥)

ويشير توينبى فى كتابه الى ظاهرة الحدود المصطنعة بين الدول العربية، فقد رسمت هذه الحدود بعد عام ١٩١٨ بواسطة قوات الاحتلال الاجنبية ثم قبلتها الحكومات العربية بعد الاستقلال فى حين كان ينتظر أن يزيلوا هذه الحدود التى رسمها الأجانب لتقسيمها..

ويرى توينبى أن عدم اعادة الوحدة بين البلدين العربية المقسمة أمر يبعث على الدهشة لأنه توجد فى كثير من هذه الدول العربية الآسيوية توجد مصالح مستغلة، وهى مصالح أقلية وإن كانت أقلية قوية مكنت لنفسها من هذه الحدود الانجليزية الفرنسية ومن المدهش- فى رأيه - أن هذه المصالح ظلت قوية بما فيها الكفاية حتى انها أبقت الدولة العربية الآسيوية مقسمة حتى الآن رغم انها حرة وتستطيع أن تتحد مع بعضها البعض، وأن تتحد مع الدول العربية

الأفريقية لو أرادت.. ويربط توينبى موقف بعض الحكام من الابقاء على اوضاع التجزئة بالفعل الاستعمارى الاجنبى المعاكس، وحيث تتدخل هذه القوى الخارجية فى حرية هذه الدول وتشلها عن الحركة، ورغم ذلك لاتزال هذه الدول حرة جزئيا..

وهكذا يسير الفعل التاريخى فى المنطقتين بين تيارين: احدهما ايجابى والآخر سلبى بخصوص الوحدة "وان كانت غالبية الناس على مااعتقد فى كل البلاد العربية يقومون بحركة تجاه الوحدة ويرغبون فى الحصول عليها، ورغم هذا هناك عناصر فى عدد من الدول العربية قوية بما فيه الكفاية لتضع عقبات فى طريق الوحدة وطريق الحصول عليه"(٦).

موقف مناهض للفكرة القومية :

فى حين يتصدر اعتبار المصالح المشتركة الاسباب الداعية الى تحقيق الوحدة العربية في نظر توينبى، الا أنه يقع فى تناقض من نوع معين عندما يستبعد القومية العربية كأرضية ترتكز اليها هذه الوحدة، واذا صح ما يسجله توينبى على فكرة القوميات الأوروبية من مآخذ، فلايصح أن ينطبق بالضرورة على القومية العربية، وخاصة أنه بينما اتسمت الأولى بالعنصرية والتوسع الاستعمارى الا أن الثانية اتسمت تاريخيا بالطابع الانسانى والحضارى..

حمل توينبى حملة شديدة على القومية، فليس هناك أبغض منها اليه باعتبارها سببا رئيسيا فى أسباب الحروب.. وعاب على الآتراك والعرب تبنيهم فكرة القومية رغم أن لهم تراثا يجعل من المسلمين أخوة على الرغم من

اختلاف اجناسهم وأوطانهم ولغاتهم وأن التراث الاسلامى أفضل كمثل أعلى من التراث الغربى الذى ينادى باستقلال عدد من القوميات ويتمنى أن يتوقف انتشار هذا الوباء السياسى الغربى فى العالم الاسلامى فيصل الشعور الاسلامى التقليدى للوحدة.(٧)

يميز توينبى بين حركة القومية فى الغرب.. فهذه الاخيرة اتخذت شكلا عدوانيا عنصريا فى نظره لارتباطها بالحركة الاستعمارية اما الحركة القومية فى الوطن العربى وبلدان العالم الثالث فقد نشأت بصورة وبأهداف مختلفة لانها ارتبطت بالروح الانسانية والتحررية والتى بشر بها الاسلام.. الحركة القومية عند العرب جاءت ردا على التحدى الاستعمارى.. لقد اتسمت بالطابع الانسانى التحررى انها تقبض الحركة القومية فى الغرب.(٨)

لقد شدد توينبى على مبدأ (الاخوة الاسلامية) الذى يراه مظلة أعلى وأوسع من المبدأ القومى والذى يسمية (عدوى القومية).. ولكن هل هو محقق فى تخوفه عندما يضع المبدأ الاسلامى فى مواجهة المبدأ القومى العربى؟.. وألم يطلع على كتابات القوميين العرب الكبار الذين نجحوا فى أن يبدد و هذه الثنائية المصطنعه بين (العروبة) و(الاسلام) بل وجعلوا كلا منها تخصب الأخرى وتمدها بدماء متدفقة؟

يقول توينبى متخوفا: "ونستطيع أن نتساءل عن نتيجة تسرب هذا المبدأ الى العالم الاسلامى حتى تعلم التقاليد الموروثة أبا عن جدا أن المسلمين كلهم أخوة بفضل دينهم المشترك، على الرغم من الاختلاف فى العنصر واللغة والوطن. لنا كل الحق فى الوقت الحاضر أن نتساءل فيه اذا كانت الأخوة

الاسلامية التقليدية ستحمل حلا للمشكلة الاجتماعية أفضل من الحل الذى يقدمه التقليد الغربى القائم على الاعتراف باستقلال وسيادة كل أمه"(٩)

وفى نفس الوقت فان توينبى يعتبر أن اللغة العربية الفصحى هى أس الوحدة العربية، ونحن نضيف اليهما التاريخ العربى المشترك، ووحدة المصالح.. وهذا التاريخ يشكل الاسلام أحد مكوناته الهامة، فهل لهذا الموروث الحضارى والجنور المتغلغلة المكونة للقومية العربية من تعارض مع مايذهب اليه توينبى من رفضة للقومية العربية وتفضيلة للوحدة الاسلامية يقول توينبى "ان هناك بلادا اسلامية، عربية اللغة، واذا كانت لغة التخاطب تختلف حسب المناطق، فان اللغة الفصحى واحدة من شواطئ الاطلس فى المغرب الى حدود فارس الغربية شرقا عند شواطئ الخليج العربى، ومن حلب والموصل شمالا حتى الخرطوم وعدن ومسقط وزنجبار جنوبا.. جميع الكتب والصحف الصادرة فى القاهرة ودمشق وبيروت تقرأ فى هذه المنطقة الشاسعة كلها وحتى خارجها لان اللغة العربية هى اللغة الدينية لجميع البلدان الاسلامية، حتى تلك لاتستخدمها فى التخاطب. فهل من الضرورى ان يجزأ هذا العالم العربى الى عشرين دولة مستقلة تعيش فى عزلة تامة مع بعضها البعض؟ وهل من الضرورة حقيقة أن نرى العالم العربى تفكك وتجزأ كما حصل مع الأسف للامبراطورية الاسبانية الامريكية وأن هذه التجزئة تعتبر من أخطر نقائض حضارتنا الغربية، وسيكون مؤسفا حقا أن نرى الشعوب العربية تنسج على نوالنا فى هذه الناحية(١٠). •

الوحدة .. والمصالح الاقتصادية المشتركة :

يعلى توينبى من شأن العوامل الاقتصادية ودورها فى تحقيق الوحدة العربية .. وهو يرى فى العوامل الاقتصادية فى مقدمة العوامل المهنية لتحقيق الوحدة .. ويأتى البترول فى مقدمة الثروة الاقتصادية العربية .. فمن الواضح أن أهم ذخيرة اقتصادية من ذخائر العالم العربى هى البترول، وعدم التساوى هذا فى توزيع البترول بين الدويلات العربية يبدو وجهة النظر المحدودة من العقبات الكؤود أمام تكون وحدة اقتصادية عربية بين الدويلات العربية(١١).

وتلاحظ بشئ من الاعجاب المدى الذى يذهب اليه توينبى حول أهمية النفط العربي، وخاصة اذا لاحظنا أن تاريخ هذا الرأى يعود الى الستينات وقبل الارتفاع الهائل فى أسعار البترول بعد حرب أكتوبر فى أوائل السبعينات وماعناه ذلك من مردود اقتصادى هائل وترافق ذلك على التسريع فى اقامة البنية التحتية اللازمة فى الدول العربية وماصاحبه من نفوذ عربى من الناحية السياسية ..

وربما يعد التباين بين الدول العربية، واختلاف القدرة الاقتصادية لكل منها من العوامل المعوقة شكليا تجاه تحقيق الوحدة العربية وفى ظل غياب تكامل اقتصادى حقيقى .. وتوينبى يدفع هذاالعائق ويلمح فى المردود النهائى للتكامل الاقتصادى أثرا أبعد فيما يخص هذه العملية وعلى المستويين السياسى والاقتصادى .. فيرى "أنه من ناحية أكثر تعمقا أعتقد أن هذه البلاد المحظوظة حاليا والبلاد العربية التى تملك بيترول ايضا خاص بها

ستكسب من الاتحاد، ولن يكون كسبها سياسيا فحسب وأنما أقتصادى أيضاً.. الدول العربية المنتجة طبعا ستعانى من الخسائر المادية المؤقتة بالطبع إذا كانت أحد ى شروط هذا الاتحاد اقتسام المنافع التى تعود من البترول وهو شرط طبيعى ومعقول ورغم هذا نجد أنه نتيجة لهذه الخسارة الاقتصادية المؤقتة يمكن للدول العربية التى تملك آبار البترول أن تتطلع الى الأمام، إلى مكاسب أقتصادية ستكون ذات أهمية قيمة فيما بعد"(١٢)

يطبق توينبى آليات الوحدة الاقتصادية الأوربية على الدول العربية، أنه يرفض تحقيق الوحدة الاقتصادية بمقدمة هامة وهو قيام السوق العربية المشتركة .. ولعل طرح توينبى المذكور من منظور اقتصادى يخالف الطرح العربى الذى كان سائداً فى الستينيات ومن قبله الخمسينيات بخصوص هذه العملية، فقد كانت السمة الغالبة عليه هو الطرح السياسى لقضية الوحدة .. قيام السوق العربية المشتركة هو العملية الضخمة التى يجب أن تتفرغ لها الدول العربية فى رأى توينبى .. يقول – معززا رأيه "لقد تحدثت عن القيمة الفعالة للسوق المشتركة بالنسبة لامريكا اللاتينية واعتقد أن السوق العربية المشتركة سيكون لها نفس القيمة السياسية لمعظم الدول خصوصا بالنسبة لتطور صناعاتها والدول القيادية العربية. على أى حال فى مرحلة بدأ منها صناعاتها تتطور إلى كل معونة يمكن الحصول عليها وتحتاج أيضا إلى أسواق ضخمة وأنا متأكد من أن كل الدول العربية تصنع نفسها الآن، فلو أوجدت سوق مشتركا فسوف ينشط هذا التصنيع منها وسيفيد هذاالدول

التى تملك البترول كما سيفيد الدول التى لاتملكه تماما، وفى العالم العربى نجد أن هذه السوق هامة وضرورية داخل الدول العربى خصوصا ذات التعداد الضخم فيها، فالاتحاد الاقتصادى سيزيد من ازدهار تعداد مصر وسيزيد بالتالى مشتريات كل الدول العربية، وعلى ماأعتقد سيفيد فى تطوير صناعاتها من هذه السوق" ..(١٢)

ويركز توينبى على بعد هام فى خصوص وحدة الأمة العربية، وهى أهمية الاعتماد على عدة مصادر اقتصادية وليس مصدرا واحدا (كما هو أغلب الحال فى الثمانينات).. فيدعو الى تنويع النشاط الاقتصادى، ويكاد يقرأ المستقبل حيث ينتبأ بحدوث أزمة فى الغذاء فى العالم الثالث، وهو الأزمة التى حدثت بشدة فى منتصف الثمانينات وخاصة فى أفريقيا.. وهو يعول الكثير على قيادة مصر للوحدة العربية، وكونها الركيزة الاساسية فى تحقيق هذا الوضع الاقتصادى المتكامل، ولكن بجانبه الصواب عندما يتوقع حدوث ازدهار زراعى فى مصر فى المستقبل، وهو ما لم يتحقق حتى الآن فى النصف الثانى من الثمانينات، فعلى العكس يتدهور الوضع الزراعى فى مصر بالمقابلة باحتياجات السكان الذين يزيدون بمعدل مليون كل عشرة أشهر..

يقول توينبى فى هذا الصدد "وهذا نجد أن امتلاك آبار البترول رغم أنه مصدر هام للثروة الاقتصادية هو أمر مؤقت، وليس من الضرورى أن يكون هو المصدر الدائم، وربما نجد فى عالم ستضاعف عدد سكانه مرة أو مرتين قبل

نهاية هذا القرن أن المصدر الاساسى للثروة فى العالم العربى سيكون على أى حال هو زراعتها، اذ لابد وأن تأكل المخلوقات البشرية طالما ان الجنس البشرى سيظل حاليا، ولن يتمكن أى اختراع تكنولوجى من تحرير البشرية من حاجتها الى الطعام، وتعداد السكان سوف يضغطون أكثر وأكثر على موارد الغذاء، فاذا كان هذا هو الأمر فاننا سنجد أن ذخيرة مصر الاقتصادية وازدياد تقدم الزراعة فيها قد تصبح مرة أخرى ذات أهمية قصوى فى المستقبل كما كانت فى الماضى، وأعتقد أن الزراعة فى وادى النيل سوف تكون مرة أخرى مصدرا من المصادر المهمة للغذاء فى العالم. واذا وجدت الوحدة الاقتصادية بين الشعوب العربية، فان زيادة الأيدى الزراعية العاملة فى أجزاء معينة من العالم العربى ستكون المورد الطبيعى لإمداد الشام بالمزارعين، ان الوحدة تعطى الفرصة للتحكم فى توزيع السكان الى حد ما وسيستفيد الاتحاد العربى من موقعهم الجغرافى الدقيق بين دول العالم فى حالة الوحدة"(١٤)

وينتقل توينبى فى الفكرة الاخيرة من المقطع السابق الى عنصر جديد من عناصر الوحدة الاقتصادية وهو العنصر الديموجرافى، ويحث سيتيح التكامل الاقتصادى المخطط والظروف الديموجرافية لمختلف الدول العربية.

الوحدة العربية والمستقبل:

حدد توينبى تاريخا معينا لتحقيق الوحدة العربية، ولكن هذه الوحدة لم تتحقق فى السبعينيات كما توقع، ولم تتحقق فى الثمانينيات أيضا، وعلى مشارف التسعينيات تبدو هذه الوحدة بعيده المنال فى ظل التردى المستمر

فى الأوضاع العربية ذيوع حالة التشرذم والتفسخ بين الدول العربية على اختلاف مشاربها، وهذا الوضع لايجعلنا نيأس من حدوث الوحدة فى المستقبل، إذ هى أقرب الى (قانون الحتمية) ولكن فى ظل شروط موضعية معينة.. ونبقى بانتظار الخروج من الوحدة من حالة (الوحدة بالقوة) الى حالة (الوحدة بالأمل) ونعود الى توينبى الذى عزى تقدم حركة الوحدة فى العالم الى ثلاثة أسباب رئيسية هى: تقدم التكنولوجيا، والهدف الاقتصادى، والرغبة القوية لتحرير الأرض من الضغط الخارجى وأن تصبح قوة ذات مغزى سياسى بالنسبة لجيرانها.(١٥)

ويهتم توينبى بعامل الضغط الخارجى فى التسريح بالوحدة، وهو ماينطبق فى رأية على حالة الدول العربية، فان "الدول العربية متشابهة على ما اعتقد فى انها لاتزال تشعر بالضغط الأجنبى من الخارج، وأخشى أن أقول ان استقلال أى من هذا الدول اليوم ليس فى مأمن بما فيه الكفاية"(١٦)

وبعد ربع قرن من تحليل توينبى السابق، ألا يبدو عامل الضغط الخارجى، قائما ومتزايدا، وخاصة بعد تفجر حرب الخليج فى الشرق الشمالى للوطن العربى، وأصبح وجود القوة الايرانية المتزايدة فى ،سرق عاملا جديدا من عوامل الضغط الخارجى؟

يبدى توينبى تعجبه من سبب عدم اقدام العرب على تحقيق الوحدة بعد حصولها على الاستقلال، وفى سلسلة محاضراته بالقاهرة عام ١٩٦١ يفرد جزءا مطولا منها للاجابة عن هذا السؤال..

ويمكن تحديد أهم عناصر تحليل توينبى حول تحقيق الوحدة فى العناصر الآتية :

١- يستعبد توينبى تحقيق الوحدة العربية عن طريق العنف كما حصل فى الوحدة الايطالية والألمانية. كما يعترف بوجود بعض العوائق التى تقف أمام تحقيق الوحدة وأهمها الخلافات السياسية "وفى حالة العرب، بدورهم، من المحتوم أن تبرز قضية الوحدة السياسية وأن تبرز منها المشاكل التى تخلقها المصالح الثابتة القائمة فى التفكك السياسى الحالى، وليست هذه المصالح الثابتة مصالح أسر. هناك أيضا منافسات متبادلة وشكوك قائمة بين الشعوب العربية نفسها. وهذا أمر طبيعي اذا اعتبرنا الفروق مابينها من حيث السكان والثروة ودرجة الرقي. وعقبات التوحيد هذه خطيرة لكنها غير مألوفة ولا مستحيلةالقهر"(١٧)

٢- التحدى الصهيونى من عوامل الوحدة :

يشكل التحدى الصهيونى ضغطا مستمرا على العرب، ويؤكد أن الكوارث التى تشهدها الأمة العربية فى هذا العصر الذرى موشكة على الانتهاء وان الأمة العربية ستتحقق بإنهيار السلطات الأجنبية والتأثيرات الأجنبية على بقاع الوطن العربى، وإن تحديات الكيان الصهيونى هى إحدى حوافز الوحدة كتحد قوى طبقا لنظريته عن التحدى والاستجابه، حيث من شأن هذا التحدى أن يفرز استجابه مناسبة له، فالتحدى الصهيونى لم يكن بوسعه أن تتعاظم شقته لدرجة التعطيل التام لارادة الاستجابة العربية، ولا أن تتقلص قوته

لدرجة أن يستنفذ حوافز الاستجابة، وأن هذا التحدى يوسع الأمة العربية أن تقدم استجابة مناسبة ومحتومة له، ويستند الى التاريخ فى توقعه لهذه الاستجابة فيقول "ان الأمة العربية التى تمتد من المحيط الأطلسى غرب القارة الأفريقية الى شرق الجزيرة العربية والخليج العربى قد استطاعت فى موريتانيا والجزائر والمغرب وليبيا ومصر وجنوبا فى السودان وفى العراق ومعظم البلدان المشرق أن تجيب على تحديات السلطة الاجنبية وأن تصفى كثيرا من مواقع الاستعمار الأجنبى وهى قادرة على أن تقدم استجابة تاريخية لتحديات الكيان الصهيونى المتعاظمة فى الأرض العربية"(١٨)

٣- ترافق الوحدة الاقتصادية والسياسية :

يؤمن توينبى بتوازى الوحدة الاقتصادية والوحدة السياسية "ففى الوقت الحالى والظروف الحالية التى تلعب الدولة فيها دورا ضخما فى الحياة الاقتصادية لا يمكن تنفيذ اتحاداقتصادى الى حد بعيد مالم يسير فى ركابه اتحاد سياسى بدرجة ما. واذا وجدنا الاتحاد السياسى غير قائم، فان الاتحاد الاقتصادى لن يكون اتحادا عمليا"(١٦)

٤- حتمية تحقق الوحدة :

يعرب توينبى- نتيجة لأسانيده التاريخية والموضوعية - عن حتمية تحقيق الوحدة العربية، فيتساءل فى ندوة القاهرة : هل يمكن التغلب على العقبات التى تقف فى سبيل الوحدة العربية؟

ويطلق توينبى فى معرض اجابته عن السؤال السابق نبوءته الشهيرة حول

حتمية تحقق الوحدة فى المستقبل ويعلق حدوث هذه الوحدة على الإرادة السياسية للشعوب العربية..

يقول توينبى "سيتحد العالم العربى بالتأكيد طالما أن الشعب العربى عنده الرغبة الصادقة، وإذا اتحد العرب فان مستقبلهم سيكون رائعا لان الاتحاد قوة بكل تأكيد"...(٢٠)

ومازالت نبؤءه توينبى معلقه تنتظر التحقق، مرهونه بالارادة السياسية التى يبدو أنها مازالت غائبة فى عالمنا العربى.

الهــوامش

(١) راجع فى هذا الصدد عن سيرة توينبى وفلسفته كل من :

لمعى المطيعى – أرنولد توينبى – دار الكتاب العربى – القاهرة ١٩٦٧.

محيى الدين اسماعيل – توينبى (منهج التاريخ وفلسفة التاريخ)، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ط ٢، ١٩٨٦.

– حسين مؤنس : أرنولد توينبى ونظرية التحدى والاستجابة، مجلة العربى، الكويت، يناير ١٩٧٤.

(٢) زار أرنولد توينبى القاهرة عام ١٩٦٥ بدعوة من محافظها، وقدم أربع محاضرات بجامعات القاهرة وعين شمس والاسكندرية والجمعية الجغرافية، وأدار المناقشات د. حسين فوزى، ود. سهير القلماوى، ود. محمد عوض محمد، ود. محمد كامل حسين، ود. يحيى الخشاب، ود. عبد الحميد البطريق، وعبد الله العريان.

(٣) ترجمة عمر الديراوى أبو حجلة، منشورات دار الآداب، بيروت ١٩٦٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٥) جاك بولين : مع القومية العربية، ترجمة نجدة هاجر، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٥٩، ص ١٩٨.

(٦) راجع نص المحاضرة الرابعة لتوينبى فى القاهرة بعنوان (لماذا تأخرت وحدة العرب) فى لمعى المطيعى . أرنولد توينبى – ص ٨٤.

(٧) جمال زكريا قاسم : أرنولد توينبى وناقدوه، معهد البحوث والدرسات العربية، مجلة البحوث والدرسات العربية، ٩٤، القاهرة ١٩٧٨، ص ٢٤٠.

(٨) رفيق شكرى : توينبى وقانون الوسط الذهبى، مجلة المقاصد، ٤٩٤، بيروت، مايو ١٩٨٦.

(٩) أرنولد توينبى : العالم والغرب، ترجمة نجدة هاجر وسعيد العزب، منشورات المكتب التجارى والتوزيع والنشر، بيروت ١٩٦٠، ص ٢٧.

(١٠) المرجع السابق ص ٣٨.

(١١)، (١٢)، (١٣) راجع نص المحاضرات الرابعة لتوينبى بالقاهرة والتى القاها فى الجمعية الجغرافية بالقاهرة ديسمبر١٩٦١ ، فى (لمعى ص٩٢ : ٩٠).

(١٤) المصدر السابق ص ٨٨.

(١٥) المصدر السابق ص ٧٤، ٧٥ .

(١٦) المصدر السابق ص ٨٠.

(١٧) المصدر الساب ص ٨١.

(١٨) محيى الدين اسماعيل . توينى، منهج لتأريخ وفلسفة التاريخ، مصدر سابق ص٦٧.

(١٩) راجع نص المحاضرة الرابعة بالقاهرة ص ٧٧.

(٢٠) نص المحاضرة الرابعة (لماذا تأخرت وحدة العرب)، ص ٩٠.

العقاد وعبد الناصر ....

اللقاء الغائب

تجدد الذكرى المئوية لمولد المفكر المصرى الكبير عباس محمود العقاد "١٨٨٩ - ١٩٦٤" جوانب متعددة من سيرة الرجل، وفكرة الخصب، وربما لم يحظ مفكر بعينه من مكانه فى الفكر المصرى فى القرن العشرين مثلما حظى الرجلان :- العقاد وطه حسين

وربما تكون الصفحة الخاصة بعلاقة بثورة يوليو ١٩٥٢ وزعيمها جمال عبد الناصر هى الصفحة الاكثر غموضا وأغلاقا من كتاب العقاد الضخم، فالثانى جاء ليحقق مادعا اليه الأول تقريبا : التحرر الوطنى والعدالة الاجتماعية والأمة المصرية الناهضة، ومع ذلك فقد وقف العقاد من الحقبة الناصرية موقفا أقرب الى السلبية والتحفظ، إن لم يكن العداء الصامت أو الخفى،

.. وهو مايجعلنا ننبش فى تراث الرجل لنعرف لماذا تأخر العقاد عن الالتحاق بالثورة والتعبير عن فكرها ومضامينها التقدمية وطموحها القومى وبدرجة أشد تحفظا من موقف : طه حسين؟

ولكن علينا أولا أن ننتبه إلى مفتاح هام من معالجه هذه الاشكالية وهو ان الثورة قد قامت فى ١٩٥٢ بعد أن كان العقاد قد أستنفذ أغلب دوره أو

رسالته فى الفكر المصرى الحديث؟ بل ربما كان العقاد قد توقف بالفعل منذ بداية الخمسينات بعد أن كان قد قال أهم ماعنده ....

ويلاحظ لويس عوض أنه لم يكن غريبا أن كل اعلام الفكر الذين توهجوا بثورة ١٩ قد عجزوا عن معالجة الموقف الجديد، وقد استمروا بالطبع ينتجون بفعل القصور الذاتى، ولكن لم يكن لديهم شئ علمانى أيجابى يقولونه منذ ١٩٣٩. فلم يكن مصادفة أن هيكل، مؤلف جان جاك روسو فى العشرينات غدا المترجم الكبير لسيرة النبى محمد، وكذلك منصور فهمى والمازنى. أما العقاد فكان قد فرغ قبل ١٩٣٦ تماما من عمله الهام وهو بناء النقد العربى على أسس علمانية ونشر أفكار القرن ١٩ الاساسية ذات الطابع الجوانى. وقد كان كتابه العظيم الاخير عن سعد زغلول وهو مؤلف فى تراث عبادة البطولة أشبه شئ بشاهد على ضريح عصر أنقضى وهكذا تحول العقاد إلى كتابة سير أعلام الدين(١).

واعتبر لويس عوض أن هذه الظاهرة عند جيل العقاد كانت ايذانا بانتهاء عصر العقلانية المصرية واللايقين.

فقد جاء الثورة وكانت الاقطاب الخامسة للفكر المصرى قبلها العقاد وطه حسين ومحمد حسين هيكل والمازنى وسلامة موسى كانوا قد أتموا رسالتهم الادبية الاساسية قبل ١٩٣٦، فالعقاد كان قد وضع "الفصول" و"المطالعات" و"المراجعات" و"ساعات بين الكتب" و"ابن الرومى" كما وضع ديوانيه "وحى الاربعين" و"هدية الكروان" قبل ١٩٣٦ ثم تخصص من بعد حتى قيام الثورة فى الدعوة العقائدية وفى كتابة السير(٢).

فكانت الفترة من ١٩٣٦ (توقيع المعاهدة مع الانجليز) إلى ١٩٥٢ فترة أشهار أفلاس الديموقراطية الليبرالية من مصر، وهى نحو ستة عشر سنة فى مصر، فكان هناك قديم لايريد أن يموت وجديد يجد صعوبة فى الظهور.

ومع ذلك، فقد كان العقاد - كما يصفه د. حامد ربيع - هو المقدمة الحقيقية للفكر الناصرى، ومع ذلك فقد ظل العقاد فى صراع مع الناصرية السياسية[٣].

جاهد العقاد من أجل التحرر الوطني ونادى بالاشتراكية وإقامة بنيان مجتمع أكثر عدلا وهو ماحاولت أن تحققه ثورة يوليو بقيادتها الناصرية ومع ذلك فهذا اللقاء تأخر كثيرا، ولم يتم فى الاصل.

نستطيع أن نحدد خصائص أربع لأنتاج العقاد الفكرى :

١- فهو مفكر فيلسوف أكثر منه ناقد سياسة أو أديب خلاق وهو مفكر فيلسوف يؤمن بمفهوم القيادة - والبطولة كمحور للوجود السياسي وللتاريخ الانساني.

٢- وتغلب على العقاد الذاتية المطلقة. وبهذا المعنى هو أديب يفسر كل ماحوله، من منطلق تألقه الشخصي وقناعته التى لاترتبط ولاتتوقف على أى إنتماء سياسى. ظل يمثل الرفض من منطلق القناعة الشخصية حتى آخر حياته.

٣- رغم أن العقاد حوكم ودخل السجن الا أنه فى الواقع عاش حياته وهو يتهرب من مواجهة السلطة .. لقد واجه العرش وتصدى للوفد ولكنه لم يواجه حقيقة سلطة الاحتلال - البريطانى لانه كان فردا وحيدا منعزلا.

٤- ولكنه من جانب آخر كان واعيا بالذات القومية المصرية كمحور للانتماء العربى. وهكذا جعل وظيفته الاساسية إعادة الوعى بحقيقة الانتماء وبالفخر بذلك الانتماء الذى يرتبط بالاصول العربية فى أحد محاورها وهو القيادات الاسلامية وقد خيم عليه مفهوم ينبع من الكبرياء والوطنية وقد تمركزت حول مفهوم الاستمرارية فى العلاقة بين المصريين والعروبة(٤).

ولكننا قد نخالف ماذهب اليه د. حامد ربيع فى موقف العقاد من قضية الحرية، فالعقاد ركز على ترسيخ المفهوم الاقليمى للحرية مؤكدا على القومية المصرية وكانت مشابهته لعروبة مصر ضعيفا وأن كان د. ربيع يعود ليعترف بقصور العقاد فى هذا الصدد، هو ربما عمق الانتماء لمصر مؤكدا على الذات القومية ولكنه لم يوسع هذه الحرية للتفتح على الانتماء القومى العربى، يقول د. ربيع حول المعنى الآخير :

ولكن هل معنى ذلك أن عباس العقاد أدى واجبه الفكرى المتعلق بالتعبير عن حقيقة التطور السياسى فى مصر وفى المنطقة العربية؟ هل استطاع بتلك الشفاهية التى ميزته وبتلك الشجاعة التى لايمكن إلا أن نعترف أنها كانت تمثل أحدى خصائص شخصيته أن تقف من التطور السياسى فى مصر والمنطقة العربية موقف الناقد المحلل ولو فى تعبيراته الادبية رغم كل ماسبق؟

مما لاشك فيه أن عباس العقاد بهذا الخصوص لم يوفق(٥)

وقد شايع العقاد الثقافة العربية ولكنه لم يكن عروبيا، ودافع عن اللغة العربية معتبرها لغة عالمية، كما يتضح فى دفاعه عن الحضارة العربية إثباتها انها ترجع فى نشأتها الى الألف الثالث قبل الميلاد وإنها بذلك أقدم

من حضارة اليونان وغيرهم من الامم القديمة، وكان شديد الايمان بالثقافة العربية، وقد أفرد للكثيرين من أعلام العربى فى الشعر وفى الفكر دراسات خصبة مشيدا بهم أشادات رائعة.(٦)

فالعقاد بهذا المعنى ساند وشايع المركب الثقافى لفكرة العروبة حضارة ولغة ودينا، ولكنه لم يذهب أبعد من ذلك بتطوير هذا الموقف الى رؤية سياسية تحول العناصر الثقافية الثابتة الى كيان سياسى موحد تجاه وحده هذه الأمة وتكاملها والوعى بالدور الحيوى لمصر وسط محيطها العربى. حارب العقاد النازية والفاشية والأخوان المسلمين والانجليز، وتعرضت حياته للخطر فتعرض لمحاولات أغتيال من عناصر الفاشية، وقالت الأذاعة النازية عنه "لقد أعددنا لشنق العقاد حبلا أطول منه"، وعندما أقترب الألمان من العلمين فر العقاد الى السودان ناجيا بحياته، كما حارب الصهيونية وأطلقت عليه بعض عناصرهم الرصاص فى منزله. فى بدء حياته العملية أنضم العقاد الى متطرفى الجزب الوطنى ورشح لأغتيال الزعماء المتهاونيين مع الاحتلال لكنه تراجع .. وكان العقاد هو داعية ثورة ١٩ غذاها وآثارها بقلمه، وشغلته القضية الوطنية فملأت عشرة آلاف مقال أو أزيد من مقالاته التى أوقفها على القضية الوطنية، وتطابق مفهوم السياسة مع مفهوم الوطنية عنده.

فلم يكن العقاد كما يذهب طاهر الجبلاوى - رجلا سياسيا بالمعنى المألوف لدى رجال السياسة ولكنه كان كاتبا وطنيا جبار المنطق كما دعاه سعد زغلول لاتستميله سياسة الاحزاب الملتوية ولايدور معها فى ذلك، والسياسة عنده نزعة وطنية، والوطنية عنده أخلاق ومبادئ من ثم كانت حملاته

على خصومه السياسين شديدة عنيفة لأنه ينظر اليهم من وجهة نظره المثالية".(٧)

وعلاقة العقاد بالوفد وسعد زغلول خاصة تستحق التوقف لأنها قد تلقى ضوءا على العلاقة الأخرى بين العقاد وعبد الناصر. لقد سار العقاد فى فلك الوفد ودار فى مداره فى فترة من الزمن بعد وفاته، وكان يشترط على الصحيفة أن يكتب فيها يكتب ماشاء كما شاء وإن خالف رأى صاحب الصحيفة والحزب الذى ينتمى اليه. وكان سعد زغلول يوافقه على ذلك، ولم تخل صلة العقاد بسعد زغلول من بعض الخلافات ولكنه كان حريصا دائما على ان لايحرجه فى وقت كانت البلاد فى حاجة الى زعامته والالتفاف حوله، وكان سعد زغلول يعلق على منافشة العقاد له "لو حاسبنى كل فرد فى الأمة حسابك لعجزت عن اعباء وكالتى عنها"..

ورد العقاد على هذه المداعبة "ولكن ليس كل فرد فى الأمة عباس العقاد" ووافقه سعد زغلول .. وقد طارت الحكومات المتعاقبة قلم العقاد، فأغلقت الحكومة خمس صحف لصاحب البلاغ لأن العقاد كان يكتب فيها، ولم يكتب لصحيفة البقاء ألا بعد أن تنحى العقاد عن الكتابة على صفحاته، كما هاجم العقاد الرجعية متمثلة فى حكم الملك فؤاد والذى قال عنه قولته الشهيرة فى البرلمان "إن الأمة على أستعداد لأن تسحق أكبر رأس يخون الدستور أو يعتدى عليه" ولم تستطع السراى أن تحاسب العقاد على هذا الكلام على الرغم من معرفتها الأكيدة المقصودة بهذا الكلام نظرا للحصانة البرلمانية التى

كان يتمتع بها فدبرت له تهمة العيب فى الذات الملكية من واقع مقالاته النارية التى نشرها في جريدة المؤيد الجريدة التى كان يحارب فيها الرجعية وزعمائها ..

ولما خرج العقاد من السجن فى ١٩٣٠/٣/٣١ أنطلق الى ضريح سعد وألقى قصيدته الدانية الشهيرة :

وكنت جنين السجن تسعة أشهر

وهانذا فى ساحة الخلد أولد

ففى كل يوم يولد المرء ذو الحجى

وفى كل يوم ذو الجهالة يلحد

وما أفقدتنى ظلمة السجن عزمه

فما كل ليل حين يغشاك مرقد

عدائى وصحبى لاأختلاف عليهم

سيعهدنى كل كما كان يعهد

قد حاولت السراى أستمالة العقاد اليها والاغداق عليه بالخدع والالقاب ولكنه رفض، وقد عرض عليه أن يخرج من الوفد وتنصيبه رئيسا للقسم العربى الملكى(٨) ..

إلا أن علاقة العقاد بالقصر تغيرت منذ نهاية الثلاثينيات، ففى عام ١٩٣٧ كان العقاد قد خرج من حزب الوفد بعد الانشقاق الذى حدث فيه، وانضم العقاد الى الحزب السعدى "وانساق معه فى الهجوم على حزب الوفد وزعيمه

النحاس، كما غلب عليه الإشادة بالملك والثناء عليه فى المناسبات الوطنية من الشعر الذى نظمه العقاد فى الملك فاروق :

فدته البلاد وفدى البلاد … بعالى التـراث بعالـى القيـم

مليك يـلوذ به عرشـــه … وكم ملك بالـعروش أعتصـم

وذو علم تسـتظل الملوك … بأعـلامها ويظـلهـم العـلم

وراع رعيــته عـــزه … اذا عز بالصخر يأتى الهرم

أبـى الملك الا كما شـاء … منيع الجـواد رفيـع الدعـم

وأثر مقابلة للملك مع نواب الحزب السعدى وحضرها العقاد عضو الحزب وأبرز محررى صحيفة الحزب "الكتلة" خرج بمقال غداه هذه المقابلة كتب فيه:-

"أننى لم أسعد من قبل بفرصة كهذه الفرصة الواسعة لاستجداء طلعة الملك عن كتب والاصغاء الى جلالته على انفراد، فى جو لا مثيل له بين أجواء اللقاء والحديث، لأنه جو الملك والديموقراطية ممثلين فى شخصية الكريم أجمل تمثيل، مجتمعين فى سماعة وكلماته وأرشاداته أحسن أجتماع(١٠)

كما وصف الملك فاروق بصفات عديدة منها "الملك المحبوب" و"الوطنى الكبير" و"راعى الديموقراطية" هذه المواقف من القصر ستؤخذ على العقاد فيما بعد، ويكاد أن يكون موقفه مشابها لموقف طه حسين من العداء للقصر الى التأييد له ومغازلته.

ألا أن شوقى يصف حياة العقاد ومواقفه بالرغم من الضعف السابق -

بأنها كانت حياة حلقات نضال غير منقطع، فمن نضال فى ساحة الأدب والشعر الى نضال فى ساحات السياسة، وهو نضال طبعه بتواضع الفروسية، بل لقد تحلى بأنبل معانيها من الشجاعة فى القول والجرأة والصراحة وهى معان أستمالت فى يده الى اسلحة يضرب بها خصومه ذات اليمين، وذات الشمال، وايضا فأنها أستمالت فى يده من ناحية ثانية الى ادوات يبنى بها صرح مجده الأدبى فى الشعر وفنون النثر(٩).

وهذا النضال المتصل دعمه أعتداءه بكرامته الى اقصى حد وهو اعتداد شأنه غير قليل من الصلب والشعور بالاستعلاء وكان ذلك ضروريا فى عصره كما يرى شوقى ضيف ...

وهذه الاشارة الاخيرة لذاتية العقاد الشديدة تشكل احد مداخل فهم ظاهرة ابتعاد العقاد عن ثورة يوليو التى بشر بانجازاتها قبل تفجرها بعقود، فلم يحتمل العقاد ألا يكون هو النجم اللامع كما تعود فى عصره، ولم يستسغ ان يتفاعل مع نظام سياسى جديد يقوده زعيم كاريزمى، فقد كان العقاد من ذلك المفكرين الذين لايرون إلا ذواتهم المتفرده ولم يوفر له مناخ الثورة فى الخمسينات والستينات كل ذلك، بل تراجع الى الوراء ولم يعد فى مقدمة كتاب المرحلة .. بل أن أعمال العقاد تشى بهذه الذاتية بجلاء "فقد كانت الذاتية أو الفردية هى أساس العمل الفنى كله عند العقاد. وكان الإيمان بالذاتية أو الفردية يلخص كل طموحات العصر الذى سلخ العقاد شبابه تحت ظلاله. فالحرية الفردية كانت أساس المطالب الدستورية التى حملها مثقفو

الطبقة المتوسطة واستقلال الفرد كان أساس التخلص من المواصفات الاجتماعية الجامدة والنفاق الاجتماعي ونشاط الفرد فيها ظل ردحا طويلا من الزمن يسمى بالأعمال الحرة. كان الامل الذى وضعته الطبقة المتوسطة نصب عينيها ولوحت به الجماهير الشعبى بل كانت فيه نماء الثروة الفردية القومية(١٠).

كان للعقاد رافدان كبيران **أولهما** . الاعتزاز بالنفس الذى يصل الى حد التطرف، **وثانيهما** أحتقار العظمة القائمة على غير أساس من المثل الأعلى الأخلاقي للنقاد، هذا المثل الأعلى الذى يعد المال والجاه والمنصب والالقاب الاجتماعية والعلمية، وغيرها من مظاهر القوة أعراضا زائلة لم تدعم بغرض خلقى أو وطنى سبيل(١١).

هذان الرافدان كونا نهرا واحدا هو الصلابة التى تغذى كل ميوله وأنطباعه وتصرفاته.

كانت رؤية العقاد للعالم†point of viewتصدر من مركز واحد فى الوجود هو ذاته، وذاته كانت المحدد الأساسى والوحيد للأشياء والأحداث "فكان يفسر كل ماحوله من منطلق تألقة الشخصى وقناعته التى لاترتبط ولاتتوقف على أى انتماء سياسى، فظل يمثل الرفض من منطلق القناعة الشخصية حتى آخر حياته(١٢) ويمكننا أن نتوقف عند جانبين هامين فى فكر ألعقاد شكلا أهم ملامحه الفكرية وهما فكرتا الحرية والاشتراكية :-

١- **الحرية** : غلب على العقاد المفهوم الليبرالى للحرية، فكتب فى حرية

الفكر والرأى والسياسة ومايعلوى فيها من الديموقراطية وحقوق الأمة فى الحكم وقال يجب ان تنبع مطالبتنا بالحرية من داخلنا وليست من محاكاتنا لغيرنا، ولذا هاجم النظم الفاشية والنازية والشيوعية معتبرا أن مبدأ "الحكم من الأمة للأمة" هو أصلح المبادئ السياسية لقيامه على الدعائم الديموقراطية السليمة محاولاً أن يثبت أن الإسلام هو الذى أنشأ فكرة الديموقراطية لأول مرة فى تاريخ العالم وذلك فى كتابه "الديموقراطية فى الإسلام"(١٣).

وعبرت كتبه عن نزعته الليبرالية "الحكم المطلق فى القرن العشرين" و"هتلر فى الميزان" و"النازية والأديان" و"فى بيتى" والديموقراطية عند العقاد تمثلت فى أنها تقوم على أن الأمة مصدر السلطات وأن الحكم لابد ان يرتكز على الشعب، ولاتقوم الديموقراطية الا على حرية الفرد والشعب على السواء فى ابداءارائهم(١٤).

وقد مثل كتاب "الشعر الجاهلى" "والأزمة الشهيرة التى ترتبت عليه نموذجا لموقف العقاد المؤيد لحرية الفكر بمعناها الليبرالى فقد ساند العقاد كاتب الوفد الأول - ومعه نفر من الوفديين - موقف طه حسين وفى وجه الأعصار الذى قام ضده فى الأزهر والبرلمان والحكومة والرأى العام، ورأى - العقاد مساندة موقف طه حسين أمام الجهات الرسمية وتحت قبة البرلمان لاعتقاده ان هزيمة الفكر فى هذه الأمة سيعقبه أفتتاك رجال الحكم على اصحاب الأقلام(١٥).

وكان من الصعب على العقاد ان يستوعب ماقدمته ثورة ١٩٥٢ من

مضمون جديد للحرية وهو الحرية الاجتماعية متمثلا فى توفر العدالة الاجتماعية وتأمين رغيف العيش وموازيا للحرية السياسية، ربما دفعه الى ذلك الموقف نفوره مع الاجراءات الأستثنائية التى لجأت اليها حكومة الثورة فى بعض فتراتها وبطشها بالأخوان المسلمين والشيوعين فى بعض مراحلها ونفوره من كل مايعتبر حرية الرأى والفكر والذى مسته الثورة مرارا وهى تؤمن الثورة والمجتمع الجديد وخاصة ان الثورة لم تنجح فى حل اشكالية الديموقراطية من الناحية العملية وخاصة فى شقها السياسى ......

ويلمح لويس عوض الى المذهب الليبرالى للحرية عند العقاد والتى كانت تعنى له "حريته أولا" ولم تتطور أبعد من ذلك "وقد كانت شخصيته أشبه مايكون بكارلايل أو أمرسون سواء فى الحياة أو فى الادب. ورغم انه بين الكافة من كتاب مصر أصلب مدافع عن الديموقراطية الليبرالية حتى ١٩٣٦ الا أنه كان أبعد مايكون عن التسامح الليبرالى وعن الديموقراطية فى موقفه من الحياة ومن الفن، لقد كان العقاد متشربا بالمثالية الألمانية من فيخته الى نيتشه الى حد التشبع فلم يكن من الممكن ان يخرج منه ليبرالى أصيل، وفى الواقع لم تكن له صله بالليبرالية الا إيمانه الذى لاحد له بقيمة الفرد ومكانته(١٦).

٢- **الاشتراكية** : بالرغم من أن العقاد قد هاجم الشيوعية مرارا إلا انه أمن بالاشتراكية وتحمس لها لأنه قاسى المرض والجوع والعناء مقابل المترفين الذين يحصلون على كل شئ معتبرا الاشتراكية نشأت من حاجة ضرورية شعر بها الناس، وهى أن ينال كل فرد حظه من المعيشة الصحية وان

يسوى وبين غاية فى فرص العمل التى تؤهلهم لها كفاءاتهم وأيضا أن يرفع من العامل. صاحب المصنع بحيث يصنع أنسانا ذا رغبة فى عمله وغيرة عليه، لا آله تدير"(١٧).

ويذهب شوقى ضيف الى ايمان العقاد بالاشتراكية الفابية التى دفعت الى تأسيس حزب العمال الانجليزى، وهى تدعو الى ولاية الحكومة للمرافق عن طريق الوسائل الديموقراطية، كما تدعو الى منع الاستغلال والاحتكار الى وجوب التسوية بين الناس فى فرص الاعمال، غير انها لاتمضى قدوما من التمكين للعدالة الاجتماعية بالقضاء على الرأسمالية واذابة الفوارق بين الطبقات الاجتماعية على انه ظل مشغول عن هذه الاشتراكية طوال جهاده السياسى، فقد عبأ كل طاقاته فى هذا الجهاد للمطالبة بالحرية السياسية ولم تشغله الحرية الاجتماعية كثيرا وهو الجانب الذى مضت ثورة يوليو بعيد وقد كانت للاشتراكية عند العقاد مضمون اسلامى قائم على العدل وعدم الاستغلال، ويقول العقاد "اذا مات رجل عن ١٠٠ الف جنيه وخلف وراءه ابنا فكيف يحق لهذا الابن الاستيلاء على جميع هذا المبلغ؟ وبأى حق يستحق هذا المقدار من ثروة الأمة؟ أن على الوالد ان يربى ولده ايضاً وان يعينه على انشاء مستقبل له فى الحياة فليكن الامر كذلك، فليس فى هذا نزاع فاذا مات هذا الأب فتقوم الحكومة مقامة فتتولى تربية ولده وتمده متى حان ان يعمل لنفسه بما يبدأ به عملا من الأعمال، ولتتركه بعد ذلك يلاقى مايستحقه بجدارته من نجاح أو فشل وتنفق الباقى فى تحسين حال المجموع بمالا يمكن أن يأتى على يد فرد من الأفراد.

عندما قامت الثورة حياها فى قصيدة عيد النيروز، وان كانت قصيدة أقرب الى قصائد المناسبات التقليدية ...

أهـلا بنيـروز وليـد آهـــلا بميلاد سـعيد
يوم جـديد قلـت بل عهد على مصـر جديـد
عهد نضـال كرامـة فيــــه وتتبعــــها
لاتـستذل ولاتنــام على الهوى سوى العبيد
وغدا سنقشع الغيوم فـلا بروق ولا ركـــود

كما كتب العقاد دراسة مطولة عن كتاب "فلسفة الثورة" فى الميزان وعندما أعلنت القوانين الاشتراكية فى يوليو ١٩٦١ فى مصر، كتب فى مجلة الهلال "والاشتراكية السمحة هى اشتراكية التعاون التى تدين بها، وهذه هى اشتراكية التعاون التى نراها ولاه الأمر فى وطننا لاصلاح المجتمع لتحسين معيشة العامل والفلاح، وتحديد الثروة على أنواعها وتقريب المسافات بين طبقات الأمة، وهى اشتراكية تؤتى ثمراتها على التحقيق كلما ألمت بها التجربة بعد التجربة على اساس التوفيق بين تقييد الاحتكار والاستغلال واطلاق النشاط الحر والكفاية فى ميدان العمل كافة(١٨).

وعموما أنضم موقف العقاد الفكرى من ثورة عبد الناصر الى موقف اقرب الى موقف "الصمت" باعتبار أن موقف المثقفين المصريين من ثورة يوليو تراوح بين موقف المؤيد" ومثلهم الخارجين على جماعة الأخوان المسلمين ومثقفى التيار الشيوعى، وموقف "المهادن" ومثله طه حسين وتوفيق الحكيم

وحسين فوزى، وقد غلبت الانتهازية على موقف هذا الفريق، أما الفريق الثالث فهو موقف "الصامت" ويضم العقاد ولطفى السيد ود. محمد حسين هيكل ود. وحيد رأفت ومصطفى مرعى وآل عبد الرازق ... وهذا الفريق لم يرض بتأييد السلطة الجديدة، كما لم يرض بمسايراتها، ومن ثم أختار موقف الصمت فى مواجهة الاجراءات الاستثنائية للثورة والتى اعتبرها مسيئة للتراث الليبرالى لحركة النضال الوطنى .. كان العقاد يهاجم عبد الناصر فى ندوته الاسبوعية، وكانت هذه الاراء تصل لعبد الناصر كما كان يصله نقدا مشابها لنجيب محفوظ وعزيز اباظة فى أحاديثهم الخاصة ولكنه تركهم بلا تدخل.[١٩]

وطال تقوقع العقاد بعيدا عن تحولات المجتمع المصرى، ووضح أنه اثر موقف الصمت والتجاهل والسلبية من القرارات والاجراءات الناصرية، وان لم يحل ذلك دون حصول العقاد على جائزة الدولة التقديرية والذى سلمها له عبد الناصر نفسه.

هل يمكن الذهاب من نهاية هذا التحليل الى ان موقف العقاد من التجربة الناصرية وتفسير عزوفه وتحفظه وتخلفه عن التفاعل مع مسيرتها يتحدد بعده عناصر رئيسية.

- **عنصر زمنى** : فقد تأخرت الثورة عن نجم العقاد الصاعد، وتفجرت فى وقت كانت الليبرالية المصرية ومن رموزها العقاد - قد أفلست وقدمت كل ماعندها، ولذا لم يكن ينتظر من العقاد الكثير بعد ان قال اغلب ماعنده عن فترة النضال الوطنى والذى قاده حزب الوفد قبل الثورة والذى اعلن افلاسه

تماما مع حريق القاهرة ١٩٥٢ .. ولذا جاءت الثورة فى "الزمن الضائع" للعقاد وجرفه تيارها الى الشاطئ.

- **عنصر ذاتى** : يتمثل فى توهج الفردانية عند العقاد واستعلائه الذى منعه من ان يتطور الى العمل الجماهيرى بعد الثورة، والذى كان نجمها الأول فى ذلك الوقت قائد غيره هو عبد الناصر، وأحاطه كبرياؤه بسياج حصين من الفردانية عزلت الرجل الى حد ما عن التحولات فى الشارع المصرى.

- **عنصر فكرى** : فلم يتطور فكر العقاد بتطور تحولات المجتمع والعقاد الذى كان يرأس لجنة الشعر فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والاداب كان يحيل قصائد الشعر الحديث "شعر التفعيلة" إلى لجنة النثر لعدم اعترافه بها، وذهب العقاد وأنتصر الشعر الحديث لأن مقالاته الفنية ظلت محافظة أو رجعية بالنسبة للتطور الجديد. ويصف د. شكرى عياد الموقف بافلاس المذهب الفردى، فقد أفلس فى الادب، كما أفلس فى كل ميدان آخر من ميادين النشاط البشرى وشعر العقاد كما شعر من مفكرى جيله فى الشرق والغرب بأزمة المذاهب الفردية(٢٠).

ولذا كانت رموز العصر الجديد فى الخمسينات والستينات أكثر تعبير على الأطار التاريخى وتحولاته المختلفة من العقاد وجيله ومنهم.

د. محمد مندور ولويس عوض ومحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس ونجيب محفوظ ويوسف أدريس ورجاء النقاش وأنور المعداوى ونعمان عاشور وعلى الراعى وغيرهم من الذين أستوعبوا هذه المرحلة ولذا كانت تحولات المرحلة أسرع من أستيعاب العقاد لها.

والذى كان قدم أغلب أمكانيته وكلمته قبل قيام الثورة.

ترى لو أن العقاد كان قد فهم خصائص التطور السياسى فى المنطقة العربية وبصفه خاصة عقب ثورة ١٩٥٢ أكان موقفه قد تغير عن ذلك الجمود، وذلك الرفض الصامت وعدم الانفتاح الفكرى على جمال عبد الناصر[٢١].

هكذا نفسر هذا الحوار الغائب بين زعيمين : مفكر وسياسى عبر كلاهما عن نفس الامانى الوطنية وإن اختلف مضمون التعبير بإختلاف المرحلة التاريخية ......

(١) لويس عوض : الثورة والادب، الكتاب الذهبى، روز اليوسف، القاهرة ١٩٧١، ص ١١٢.

(٢) المصدر السابق ص ١٣٢.

(٣) حامد ربيع : الثقافة العربية بين الغزو الصهيونى وارادة التكامل القومى، دار الموقف العربى القاهرة ١٩٨٣.

(٤) المصدر السابق : ص ٢٠٧.

(٥) المصدر السابق : ص ٢٠٨.

(٦) شوقى ضيف : مع العقاد، اقرأ (٢٥٩)، دار المعارف، ص ٤، القاهرة ١٩٨٥ ص ٦١.

(٧) محمد طاهر الجبلاوى : العقاد بين الوطنية والسياسة، مجلة المحلية، القاهرة أغسطس ١٩٧٠.

(٨) عبد الحى دياب : العقاد ناقدا، القاهرة "د.ت"، ص ١٦٢.

(٩) الاهرام : فى ١٩٤٧/٩/٢١.

(١٠) راجع المقال فى "أحمد بهاء الدين" : فاروق ملكا، د.ت، ص ٨٠.

(١١) راجع مصطفى عبد الغنى :المثقفون المصريون فى السياسة من ١٩٤٥ حتى الستينات، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية بنات عين شمس بالقاهرة ١٩٨٩، ص ٥٠-٥٢.

(١٢) شوقى ضيف : مع العقاد، مصدر سابق، ص ٥٢.

(١٣) المصدر السابق : ص ٦٨.

(١٤) زينب عبد العزيز العمرى : شعر العقاد، مكتبة الاداب، القاهرة "د-ت" ص ٢٦.

(١٥) حامد ربيع مرجع سابق ص ٢٠٧.

(١٦) شوقى ضيف، ص ٦٨.

(١٧) عباس محمود العقاد : سعد زغلول، القاهرة ١٩٣٦ ص ٢٥.

(١٨) عبد المنعم الدسوقى الجميعى : الجامعة المصرية والمجتمع "١٩٠٨ - ١٩٤٠" مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام، القاهرة ١٩٧٦، ص ٦٥.

(١٩) مصطفى عبد الغنى : مرجع سابق ص ٢٠٠.

(٢٠) لويس عوض : الثورة والادب، ص ١٥٦.

(٢١) شوقى ضيف : مع العقاد ص ٧٠.

(٢٢) عباس محمود العقاد : مجلة الهلال، القاهرة أكتوبر ١٩٦١.

(٢٣) شكرى عياد : الرؤية المقيدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٨، ص٧٠.

(٢٤) حامد ربيع : ص ٢٠٩.

"إنك لاتدركين عظمة واهمية ماافعله لإسرائيل. إننى اخرج مصر من المعركة"

هنرى كيسنجر (لجولدامائير)
١٩٧٤

الباب الثالث

عروبة مصر بعد كامب ديفيد

(العروبة هوية وليست قناعا)

انعكاسات الصلح مع اسرائيل
على الفكر التربوى والتعليم فى مصر

مثلت حقبة السبعينات فى مصر مشروعا مميزا ذا ملامح مميزة مغايرة للحقبة الناصرية .. ويمكن القول أن الأرضية الأساسية لهذا المشروع كانت سياسات الانفتاح الاقتصادى والتى ارتكز عليها عمودان اساسيان هما التجربة الليبرالية الحزبية المحكومة، والتحالف الاستراتيجى مع الغرب الذى أفرز الصلح مع اسرائيل.

لقد مثلت هذه الملامح انقلابا على خط ثورة يوليو، وماحدث من تآكل بالنسبة لمفاهيم الاستقلال الوطنى والتنمية الذاتية لم يكن بعيدا عن تآكل العلاقات المصرية العربية، ودخول مصر فى دائرة الحلف الموالى للغرب.

واذا كانت ملامح الحكم فى مصر فى السبعينات تمثل وجها مغايرا لملامحة فى الخمسينات والستينيات، فان عروبة مصر ودورها القومى فى وطنها العربى لم يكن بعيدا عما حدث، وشهد الحياة الاتجاه القومى العربى فى مصر انحسارا ملحوظا على مستوى الخيارات السياسية للحكم، ومثل حوار السبعينيات الشهير أهم أختبار لهوية مصر القومية.

واذا كان الباحث فى التربية وأصولها عليه ان يبحث عن العلل البعيدة والآثار البعيدة للقضية التربوية، أى تجاوز حدود المؤسسة التعليمية والنظام التربوى الى النظام الاجتماعى والبنية العامة للمجتمع بكل مافيه ومن فيه(١).

فلم يكن التعليم فى مصر بعيدا عن كل هذه التحولات الساخنة فمن دور قومى نشط الى حصار عربى رسمى لمصر، ومن اعلاء الهوية القومية العربية الى التشكيك فى تلك الهوية، وتصاعد الدعاوى الانعزالية القديمة .. وسوف تكشف هذه الدراسة عن ملامح التأثر التى حدثت فى مجال التعليم المصرى بعد توقيع معاهدة الصلح مع اسرائيل، من خلال رصد موقع الاتجاه القومى العربى فى التعليم وسط مناخ التراجع القومى فى مصر عموما فى تلك الفترة، وذلك بتحليل الوثائق التعليمية الرسمية، وتتبع السياسة التعليمية، وتحليل مقررات الدراسة للكشف عن ملامح التأثر الحقيقية ومعرفة التغيير الذى طرأ على مسألة الانتماء القومى العربى فى مصر، وهويتها القومية العربية.

١- الخطاب التربوى

بات واضحا أن التغيير الذى حدث فى التوجهات الرئيسية للحكم فى مصر فى السبعينيات، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، قد تركت بصماتها على اهتمامات الفكر التربوى المرصودة فى تلك الفترة(٢).

وتحول الاهتمام من القضايا التربوية المتصلة بالاتجاه القومى مثل التكييف القومى للمناهج، والتربية القومية العربية، والوعى بالتراث العربى، الى الاهتمام بقضايا مغايرة وخاصة بعد توقيع الصلح مع اسرائيل، مثل الترويج لما يسمى بالتحدى الثقافى، والتربية من اجل السلام، والمواجهة الحضارية مع اسرائيل، واعادة بناء الانسان المصرى(٣).

ويمكن القول ان النغمة الاقليمية بعد زيارة القدس أصبحت صاحبة الصوت البارز فى ظل هذاالمناخ من التراجع القومى وخاصة أن "السادات

بدأ يغذى لدى المصريين الاحساس بالوطنية ويقلل من شأن الاحساس بالقومية العربية وبدأت روح جديدة تظهر (مصر أولا)(٤).

وحاول التيار الاقليمى فى مصر أن يوفر الغطاء الفكرى لسياسة النظام ذات الاتجاه اليمينى بصيغته الرأسمالية، وأن يستمر مناخ تدهور العلاقات بين مصر والأمة العربية لتعزيز خط التراجع القومى لصالح اتجاهات أخرى بديلة يصب أغلبها فى قناة السويس.

واذا كان مجرد تفجير (حوار السبعينيات) حول عروبة مصر علامة مرضية فى مسيرة مصر القومية فى حد ذاته الا أن نتيجته التى كشف عنها ذات دلالة ايجابية بالنسبة لعمق الهوية القومية بين المثقفين المصريين. وكشف (حوار السبعينيات) أيضا عن مدى تغلغل الوعى بالهوية القومية العربية لمصر بين مثقفى مصر، فقد وقف اغلبهم سدا يحول دون تزايد المد الانعزالى، ومؤكدين على عروبة مصر، وناهضوا الدعاوى القطرية والانعزالية التى عادت للظهور، والتى دعت الى تقوقع مصر على نفسها وتخليها عن مسئولياتها القومية .. ففى مقابل الجبهة الفكرية الانفصالية التى شكلها الحكيم وحسين فوزى ولويس عوض، جاء رد الفعل المقابل من المثقفين المصريين المتمسكين بعروبة مصر عقلانى النزعة ومستندا الى أسس جيوسياسية وتاريخية وأمنية وحضارية ومصلحية .. ويبدو ان تفجير حوار السبعينيات حول عروبة مصر جاء رد فعل لسياسة الصلح مع اسرائيل ومثل موقفا لليمين تجاه تصفية انجازات الحقبة الناصرية ومتمثلا فى أحد معالمها البارزة وهى الدور القيادى لمصر فى وطنها العربى والنزعة الوحدوية .. والمثال على ذلك أن توفيق الحكيم

الذى افتتح باب الهجوم على عروبة مصر هو نفسه صاحب كتاب (عودة الوعى) الذى فتح الباب لمحاكمة التجربة الناصرية.

وبالرغم من أن حملة التشكيك فى الهوية العربية لمصر تم فى أشد المراحل تراجعا بالنسبة للموقف الرسمى من العلاقات المتردية مع البلدان العربية، ومن بروز نغمة السلام والتطبيع مع الكيان الصهيونى داخل مصر، وبدء تطبيق مقررات قمة بغداد الخاصة بمقاطعة مصر، الا أنه قد كشف - فى الوجه الآخر - عن عمق وأصالة الوعى بعروبة مصر بين مثقفيها، فلم يتخذ موقف التراجع سوى ثلاثة من المفكرين من بين ٣٥ مفكرا شاركوا فى الحوار(٥) .. ويذهب أحدهم فى تعليقه على نتيجة الحوار، أن اثارة هذا الحوار هو إنهاء وهزيمة للدعاوى الانعزالية وترسيخ للاتجاه القومى العربى فى مصر" إن التطور المستقبلى للفكرة العربية فى مصر سوف يسير فى خط ثابت ومستقل عن الخلط بأية أفكار وتيارات، وظهور دعاوى وتيارات مناهضة للفكرة العربية لم يعد يمثل تهديدا أو عائقا أمام تطور الفكرة العربية"(٦)

بعد حرب اكتوبر بدأت ملامح المشروع الخاص للسادات فى الظهور، كانت ورقة اكتوبر عقب الحرب أولى الوثائق التى تترجم هذه الملامح، وان لم تكن بنفس الصيغة كما طرحت فى نهاية السبعينيات .. حددت الورقة أهداف الدولة فى النقاط الاتية :

١- التنمية الاقتصادية بمعدلات تفوق ماتحقق حتى الآن.

٢- الإعداد لمصر عام ٢٠٠٠ حتى نوفر أسباب استمرار التقدم للأجيال المقبلة.

٣- الانفتاح الاقتصادى فى الداخل والخارج الذى يوفر كل الضمانات للاموال التى تستمر فى التنمية.

٤- التخطيط الشامل والفعال الذى يكفل بالعلم تحقيق الاهداق العظيمة للمجتمع.

٥- دعم القطاع العام وترشيده وانطلاقه تمكينا له من قيادة التنمية.

٦- التنمية الاجتماعية وبناء الاسنان.

٧- دخول عصر العلم والتكنولوجيا.

٨- التقدم الحضارى القائم على العلم والايمان.

٩- المجتمع المفتوح الذى ينعم برياح الحرية.

١٠- المجتمع الآمن الذى يطمئن فيه المواطن على يومه وغده(٧).

تكشف النظرة النقدية المبدئية لهذه الاهداف عن غياب التأكيد على الانتماء العربى لمصر، ومسئوليات مصر القومية، فلم تشر الى عروبة مصر، أو الى مهام استراتيجية مستقبلية بشأن دور مصر العربى، وأسقطت من اهداف العمل الوطنى هدف النضال من اجل تحقيق الوحدة العربية المرتكز على فلسفة القومية العربية، كما تبنته مصر طيلة السنوات السابقة، وكما أكدت عليه الوثيقة الرسمية فى الستينيات، أيا: المناخ القومى النشط، وهى (الميثاق).

كما أغفلت الورقة فى اهدافها الاشارة الى مستقبل الصراع العربى الاسرائيلى، ودور مصر تجاه مقاومة مشروعات الهيمنة الاستعمارية فى المنطقة. وكل هذه الاهداف التى تضمنتها ورقة أكتوبر خصت مهام بناء المجتمع فى الداخل فقط.

ولم تختلف الاهداف التربوية كما طرحها الفكر التربوى ووثائق التعليم الرسمية، فتكاد لاتختلف عما جاء فى ورقة اكتوبر من اهداف للمجتمع المصرى، وكما حددتها وزارة التربية والتعليم فى احدى وثائقها :

١- اعداد جيل كفء تتوفر فى بنائه المقومات التالية :

* تكامل النمو عقليا ونفسيا ودينيا بدرجة تمكن من الاسهام فى تقدم الوطن.
* الإيمان بالله والاستمساك بقيم المجتمع الدينية والخلقية.
* الثقة بالنفس والايجابية فى العمل.
* الإيمان بالعلوم اسلوبا للحياة وصنع التقدم.
* الإعتزاز بالوطن والانتماء للامة العربية.
* التزويد بإرادة النضال واسباب القوة لتثبيه مكانة الوطن وتأمين حقه فى الحرية والأمن.
* الادراك الواعى للحقوق والالتزامات.
* الإستمساك بمجتمع الكفاية والعدل طريقا الى الحياة الحرة الكريمة.
* التفاعل مع البيئة والمشاركة بالفكر والعمل الايجابى فى خدمة الوطن.
* ادراك ان الوطن العربى يعيش فى علاقات أخذ وعطاء مع المجتمع الانسانى الكبير(٨).

وتلاحظ على الاهداف السابقة ضعف تواجد البعد القومى، فالاهداف المرصود تحقيقها تهتم بالبعد الوطنى فى اعداد الطلاب، ومن الصعب أن يحكم على تلك الاهداف بانها تعرضت للبعد القومى الا فى موضوعين : الأول عندما تحدثت عن مواصفات اعداد الجيل الكفء من المتعلمين، كان من بينها - ذات البعد القومى - قيمة (الاعتزاز بالوطن، وبالانتماء للامة العربية).

ويشير لفظ (الانتماء) الى اشعار المتعلم بانتمائه" الى أمته العربية، ولكنه توقف عند هذا الحد المتعلق بالمستوى الوجدانى، ولم يتخطاه الى مستوى العمل والممارسة. كما اغفلت البنود الحديث عن القومية العربية والوحدة العربية والعمل العربى المشترك واذا قورنت بالوثائق التعليمية الرسمية فى الستينيات.

كما نلاحظ انحسار مماثلا بالنسبة لموقع البعد القومى فى الوثائق التعليمية منذ منتصف السبعينيات، وظهور حالة الانحسار القومى العربى.

ووضح أحد التربويين تصوره لمسئولية التربية تجاه الصلح مع اسرائيل، متمشيا مع الدعوة التى طرحت وقتها اعلاميا تحت شعار "المواجهة الحضارية بين مصر واسرائيل" وهو طرح بديل للمواجهة العسكرية للعدوان الصهيونى، ومحاولة ايجاد حوار عربى - اسرائيلى يرتكز على التفاهم والتعايش السلمى، والغريب ان ذلك الطرح للتوجه الجديد لمواجهة الصراع قد تم قبل ان تعيد اسرائيل شبرا واحدا من الارض المحتلة .. فيذهب الباحث التربوى الى أن "تطبيع العلاقات مع اسرائيل فى المستقبل القريب يمكن أن يعد نوعا من التحدى بين صورة للتكنولوجيا العربية فى منطقة الشرق الأوسط بما تتطلبه من تنظيمات ادارية وبحث علمى .. الخ فى مواجهة تحديات غير عادية تعيشها اسرائيل وبين مصر بجذورها الحضارية الراسخة ووحدة شعبها الثقافية وتوافر الكثير من أسباب التكنولوجيا المعاصرة والامكانات العلمية والبشرية الهائلة وهى تواجه الرواسب الثقافية الناشئة عن فترات الاحتلال السابقة والحروب وبعض المشكلات الاقتصادية والاجتماعية المتعاقبة. ان حدوث المواجهة الثقافية بين مصر واسرائيل أمر قادم ولاشك

فـيه، وان كاتب الكتاب يرجع لأسباب كثيرة ان هناك امكانيات قومية – تحت شروط معينة – أن تتفوق مصر على المدى الطويل فى هذا التحدى الثقافى(٩).

ونلاحظ استعمال الكاتب لمترادفات معينة مثل "المواجهة الثقافية" و"التحدى الثقافى" مما يبدو وكأنه تسليم بخيار الصلح فى الاساس والتخلى عن الخيار العسكرى دون مناقشته أو تفنيده، كما انه استبعد أى بعد قومى فى هذا الصدد، ولم يطرح الا البعد الاقليمى المصرى فى المواجهة المتصورة، مما يرسخ فى الاذهان التأكيد الضمنى على اقليمية مصر، واقليمية التربية فيها ايضا.

واذا انتقلنا الى تحليل بنود أهم قوانين التعليم فى الحقبة الساداتية، وهو القانون رقم ١٣٩ لسنة ١٩٨١ والذى يعكس الفلسفة التربوية لتلك الحقبة تسجل حدوث ذلك التغير، ومدى انعكاس التراجع فى الموقف القومى على الفكر التربوى.

فالمادة الاولى من الباب الأول لقانون التعليم والخاصة بالأهداف والاحكام العامة للتعليم تنص على :"يهدف التعليم قبل الجامعى الى تكوين الدارس تكوينا ثقافيا وعلميا وقوميا على مستويات متتالية من النواحى الوجدانية والقومية والعقلية والاجتماعية والصحية والسلوكية والرياضية، بقصد اعداد الانسان المصرى المؤمن بربه ووطنه وبقيم الخير والحق والجمال وتزويده بالقدر المناسب من القيم والدراسات النظرية والتطبيقية والمقومات التى تحقق انسانيته وكرامته وقدرته على تحقيق ذاته والاسهام بكفاءة فى عمليات

وانشطة الانتاج والخدمات، أو مواصلة التعليم العالى والجامعى، من أجل تنمية المجتمع وتحقيق رخائه وتقدمه(١٠).

ويبدو من السابق أن لفظ (قومى) فى الفترة السابقة يشير الى البعد القطرى لا القومى، ويؤكد ذلك الجملة العرضية (بقصد اعداد الانسان المصرى) فهى تتحدث عن الاعداد للمواطنة من منظور قطرى ولم تصف ذلك المواطن بـ(العربى) كما اعتادت الكتابات التربوية التى تصفة فى فترة المد القومى.

كما تشير جملة (من اجل تنمية المجتمع) الى البعد النظرى - لا القومى - للتنمية. كما خلت المادة رقم ١٦ من نفس القانون، والخاصة بمرحلة التعليم الاساسى، من الاشارة الى البعد القومى، حيث تحدثت عن اعداد الفرد لكى يكون مواطنا صالحا منتجا فى بيئته ومجتمعه "يهدف التعليم الاساسى الى تنمية قدرات واستعدادات التلاميذ واشباع ميولهم وتزويدهم بالقدر الضرورى من القيم والسلوكيات والمعارف والمهارات العلمية والمهنية التى تتفق وظروف البيئات المختلفة وذلك من اجل اعداد الفرد لكى يكون مواطنا صالحا منتجا فى بيئته ومجتمعه(١١).

وبالنسبة لمرحلة التعليم الثانوى فقد نصت على انه "تهدف مرحلة التعليم الثانوى الى اعداد الطلاب للحياة جنبا الى جنب مع اعدادهم للتعليم العالى والجامعى، والمشاركة فى الحياة العامة والتأكيد على ترسيخ القيم الدينية والسلوكية والقومية".

ولم توضح الفقرة القيم القومية المصرية، هل تعنى القيم القومية المصرية أم القيم القومية العربية؟

هذا الغموض يدلل على ضعف البعد القومى فى ذلك القانون كما لوحظ فى بنوده.

ويعدد تقرير رسمى آخر المهام الجديدة التى تفرضها مرحلة السلام، فيقول :"إن مرحلة بناء السلام، التى نقبل عليها، لاتقل فى تحدياتها عن مرحلة الحرب، بل انها تحتاج الى عمل وتخطيط أشق وأصعب، ذلك أنها تواجهنا بتحديات جديدة، ذات أبعاد اجتماعية واقتصادية وسياسية، تغاير فى طبيعتها وفلسفتها تلك التى كانت قائمة فى مرحلة الحرب. واذا كانت علاقاتنا المستقبلة بالمنطقة ستفرض علينا دخول دولة اسرائيل كمنافس متقدم فى العلم والتكنولوجيا مما يحتم علينا ان نسرع فى تحديد موقفنا تجاه هذه الدولة بصفة خاصة وتجاه العالم الخارجى بصفة عامة"(١٢)

وتحدد ورقة المجالس القومية المتخصصة الاطار الجديد للتعليم الذى تحققه الاتجاهات الاتية : معنى التحدى ومتطلباته، الجدية فى التعليم، معنى العدالة فى فرص التعليم، ترشيد فكرة الفرص المتاحة، فكرة الوحدة الوطنية، دور الدين والاخلاق والسلوك، دور مصر القيادى والتاريخى.

وفيما يخص العلاقات مع اسرائيل تشير الورقة الى أنه "أظهرت حرب اكتوبر ومرحلة بناء السلام ضرورة التعرف على واقع الحياة وتطورها فى اسرائيل، ولن يتيسر ذلك الا عن طريق دراسة مفهومات حياة شعبها وقدراته فى مجالات العلم والتعليم والتكنولوجيا، وبصفه خاصة فى مجال نقل التكنولوجيا الحديثة وربطها باسباب الحياة المعاصرة. ولابد لذلك من ان ينعكس على استراتيجية العملية التعليمية لترتفع الى مستوى المنافسة التكنولوجية التى تواجهنا بها مرحلة السلام" وتربط الفترة السابقة ربطا

ساذجا بين دراسة التعليم الاسرائيلى من جانبنا والاستفادة من خبرتها فى نقل التكنولوجيا الحديثة، وتبرر دراسة واقع وتطور المجتمع الاسرائيلى فى مناهج تعليمنا، بحجة التعرف على تجربتها فى الاستفادة بالتكنولوجيا الحديثة، متجاهلة دراسة نفس الخبرة فى تجارب دول أخرى فى العالم أقرب الينا كالهند مثلا .. وهذا الغطاء التربوى الهزيل يمثل التلفيق الذى ساد بعض الاجهزة وهى تحاول ربط نفسها بواقع الصلح مع اسرائيل.

وبعد الدخول فى علاقات الصلح مع العدو الاسرائيلى، وماعناه ذلك من تغيير كيفى فى سياسة الدولة الخارجية، نجد ان هذا التحول قد امتد الى التعليم .. ففى الاهداف التى اجملها تقرير تطور التربية والتعليم فى مصر فى عامى ١٩٧٩/٧٨، ١٩٨٠/٧٩ يمكن استخلاص بعض السمات المتصلة بالأهداف التربوية فى نهاية السبعينيات، وفى أوج الحقبة الساداتية، والتى تعكس التغير الهيكلى الحادث فى المجتمع المصرى، ومن هذه السمات :

١- ضعف الحديث عن الانتماء القومى العربى لمصر وتراجعه فى صياغة الاهداف التربوية.

ففى القسم الخاص بالمبادئ التى تساير المتغيرات المحلية والعالمية جاء هذا المبدأ (الحفاظ على الثقافة الذاتية والعربية)[١٢] وهو يعنى ضمنا ان تقوم التربية بنقل وصيانة الثقافة القومية، ومع ذلك خلا بقية التقرير من أى تناول أو تفصيل لمسئوليات التربية تجاه الامة العربية ونضالها، والحديث عن الامة العربية ووحدتها القومية.

٢- ظهور نغمة جديدة عن بناء السلام، والسلام العالمى، وهى نغمة أفرزها عامل الصلح مع اسرائيل، والاتجاه لاقامة علاقات طبيعية معها .. كما اشار

الى التعاون مع جهات علمية فى العالم دون الاشارة الى الاقطار العربية، فجاء فيه :"بناء السلام والتضامن الانسانى وغرس هذه المفاهيم فى نفوس الطلاب والعمل على توثيق العلاقات العلمية والفكرية بين رجال شباب الجامعات فى العالم".

(٣) البعد الاقليمى ويظهر من استخدام صفة (المصرى) فى الحديث عن المجتمع .. ففى تحديده للاولويات التربوية تحدث عن مستويين فقط : المحلى والعالمى، واغفل المستوى القومى العربى، فينص على انه "حددت الدولة الاولويات التربوية التى اكدت عليها مقومات مجتمعنا المصرى مطالب التغير المحلى والعالمى"(١٤).

ويلاحظ الاختلاف الواسع بين موقع البعد القومى فى الأهداف التربوية الخاصة بالمواد الاجتماعية فى التعليم المصرى قبل وبعد كامب ديفيد.

فالأهداف العامة للمواد الاجتماعية فى مرحلة التعليم العام قبل كامب ديفيد كانت محددة فى الوثائق التعليمية الرسمية على النحو التالى :

- رفع معنويات التلاميذ واشعارهم بالانتماء الى وطن غنى بامكاناته وموارده.
- تكوين عاطفة قوية تربط التلميذ ببيئته المحلية وبوطنه الكبير وتشعره بالانتماء له والاعتزاز به وتدفعه الى العمل والتضحية من اجله.
- الإيمان بحركة الوحدة العربية كحتم تاريخى وكضرورة واجبة لمصلحة العرب جميعا.
- تنمية روح الاعتزاز بالتراث العربى والقيم الروحية والثقافية التى تميز مجتمعنا.

- خلق الميل والاهتمام بمشكلات البيئة المحلية والوطن عند التلاميذ والرغبة الصادقة فى الاسهام فى حلها.
- تدعيم ثقة الطلاب فى قدرة الأمة العربية على تعويض تخلفها وشق طريقها بين الأمم المتقدمة معتمدة فى ذلك على امكاناتها وعزيمة ابنائها وقدرتهم على استيعاب حضارة العصر.
- تبصير التلاميذ بإتجاهاتنا الراهنة وتطلعاتنا المستقبلة مع ابراز الظروف التى تؤكد هذه الاتجاهات كحتم تاريخى وجغرافى (الاتجاه نحو الوحدة العربية - نحو التعاون الآسيوى الافريقى - نحو الانفتاح والاشتراكية - نحو معاداة الامبريالية والصهيونية).
- فهم الشخصية العربية عامة وشخصية مصر.
- ادراك دور مصر القيادى فى تاريخ الأمة وذلك بفهم مسئولياتها وتفسير الكثير من اتجاهاتها وتصرفاتها.
- تنمية وعى التلاميذ بالمشكلة السكانية على المستويين القومى والعالمى(١٥).

ومن السهولة ملاحظة تواجد البعد القومى العربى فى كافة الاهداف العشرة، ويمكن تفسير ذلك المد القومى فى تلك الفترة بتأثير قوة الدفع الناصرى فى أوائل السبعينيات، والجهود الوحدوية المتمثلة فى إتحاد الجمهوريات العربية ومشروع الوحدة الاندماجية بين مصر وليبيا، وذلك قبل حرب اكتوبر.

أما الأهداف العامة لتدريس المواد الاجتماعية بعد توقيع الصلح مع اسرائيل، وماتلاه من تصاعد عزلة مصر العربية واهتزاز الاتجاه القومى

العربي على المستوى الرسمي وعودة النغمة الاقليمية التى تتحدث عن الإنتماء القطرى والمجتمع المصرى .. فنجد التقرير الخاص بتلك الاهداف بعد الصلح يحدث عن (الانسان المصرى) وليس العربي كما كان فى الاهداف السابقة فى اوائل السبعينيات، ويغفل العربي لمصر، ويقصر عملية اعداد المتعلمين على حاجات مصر ومتطلباتها فقط.

"تحقيقا لهدف التعليم قبل الجامعى الذى يرمى الى تكوين الدارس تكوينا ثقافيا وعلميا وقوميا من النواحي الوجدانية والعقلية والقومية والاجتماعية والصحية بقصد اعداد الانسان المصرى المؤمن بربه ووطنه ويقيم الخير والحق والانسانية وتزويده بالقدر المناسب من القيم والدراسات النظرية والتطبيقية التي تحقق انسانيته وكرامته وقدرته على تحقيق ذاته"(١٦). وهى مقارنة تكشف بوضوح عن مدى تأثر الوثائق التعليمية والاهداف التربوية بالتحديد – بما حدث من انحسار قومى على الساحة السياسية الرسمية فى السبعينيات، وبالأخص بعد توقيع معاهدات الصلح مع اسرائيل.

٢- المناهج الدراسية

لم تكن المقررات التى يدرسها الطلاب فى مصر بعيدة عن التأثر بمناخ التراجع القومى فى مصر الساداتية وخطورة تأثير هذا المناخ فى مايدرسه التلاميذ من مواد دراسية هو انه يمس عملية التربية السياسية فى المدرسة، فالتلاميذ يكتسبون من خلال تلك العملية نظم القيم والاتجاهات السياسية السائدة فى المجتمع والتى من شأنها التأثير على وعيهم السياسى. وتلعب

معاهد التعليم دورا هاما فى عملية التنشئة السياسية وتمارس المدرسة هذا التأثير عن طريق التوجيه للمذهب السياسى الذى غالبا مايقدم فى مقررات دراسية رسمية كالمواطنة والتاريخ ويهدف تدريب المواطنين فى كل الدول على تعريف المواطن بحكومة بلده وتحديد السلوك المتوقع منه ثم غرس مشاعر الحب والولاء القومى فى نفسه ويترتب على تعلم التاريخ القومى تعزيز الاحساس بالتفاخر والهوية القومية.

وقد اوضحت إحدى الدراسات التى اهتمت بدراسة قضية الهوية القومية فى التعليم المصرى بعد توقيع الصلح مع اسرائيل ان الكتب المدرسية تؤكد على فرعونية مصر بنسبة ٥٤٪ وعلى الانتماء القومى المصرى بنسبة ٣٠٪ بينما الانتماء العربى لايشغل سوى ١٦٪ من محتوى المواد المدرسية. وان الكتب المدرسية تؤكد على فكرة الوطنية المصرية بوصفها شيئا مستقل عن القومية العربية وعن القومية الاسلامية وعلى سبيل المثال يؤكد كتاب التربية القومية للصف الخامس "أنت مصرى وأنا مصرى وكلنا مصريون"(١٧)

وقد توصلت دراسة اخرى مقارنة لمناهج التعليم بين عامى ١٩٨٠، ١٩٨١، انه قد الغيت مجموعة من النصوص التى تثبت الوعى القومى والوطنى والنضالى مثل قصة "رمضان العبور" التى كانت مقررة على الصف السادس الابتدائى ومثال الموضوع "حرب الدبابات" الذى كان مقررا على طلاب الصف الاول الاعدادى، ولنفس الصف ألغى كتاب "القومية العربية" ليأتى مكانه كتاب "جمهورية مصر العربية والعالم المعاصر"(١٨).

ومن الأشياء الدالة مثلا انه كانت هناك الفقرة التالية فى كتاب الجغرافيا المقررة على الصف السادس الابتدائى :"وقد تمكن اليهود الصهاينة بمساعدة الدول الاستعمارية من اغتصاب ارض فلسطين منذ عام ١٩٤٨، وشردوا معظم اهلها العرب، واستولوا على ممتلكاتهم، غير ان الفلسطينين وسائر العرب يعملون على تحرير فلسطين وعودة الشعب الفلسطينى الى وطنه" ففى سنة ١٩٨١ الغيت هذه الفقرة من الكتاب المقرر.

واذا توقفنا عند مقرر دراسى آخر هو كتاب "الدولة المصرية" للصف الثانى الثانوى، فنلاحظ عليه ان مستوى الخطاب الايديولوجى فى هذا الكتاب هو الشعب المصرى اساسا، أى المستوى القطرى المصرى تجاهل هذا الكتاب عروبة مصر تماما، ولم يتضمن بعد قوميا واضحا، واسقط الحديث عن هدف تحقيق الوحدة العربية كأحد اهداف المجتمع المصرى، وفى المقابل نجد ان الكتاب يعلى من شأن الصلح ويتجاهل تاريخ الصراع العربى الاسرائيلى "إن طول الحروب وكثرتها بين مصر واسرائيل، أكدت فى النفوس الحقد والكراهية والانتقام وقضت على القيم الانسانية السامية، وجعلت شهوة القتل تطغى على قيم الرحمة والتعاطف، وبسبب الحروب ترملت النساء وتيتم الاطفال، ومات عشرات الالوف من الشباب، وحل الخراب والدمار محل التعمير والبناء، وانطفأ البريق النبيل للمشاعر الانسانية(١٩). وكأن هذا النص فى كتاب مدرسى اسرائيلى وليس فى كتاب مدرسى يدرسه الطلاب المصريون.

ومن عناوين فصول الكتاب يتضح قصر الاهتمام على بناء المجتمع العصرى، ويتشكل القيم اللازمة لصفات المواطنة، ويتبدى اهتمام المقرر بالأهداف العامة للدولة كما جاءت فى ورقة اكتوبر التى عرضناها من قبل.

وبينما تحدث الكتاب فى إحدى فقراته حول (مصر والسلام العالمى والتعاون الدولى) وركز فيها على سياسة الحياد الايجابى ومساندة حركات التحرر والتعاون مع هيئة الامم المتحدة والتضامن مع العالم الاسلامى والتضامن مع الشعب الافريقى، الا انه تجاهل تمام الاشارة إلى علاقات مصر العربية، ودورها فى تحرر الشعوب العربية، وفى العمل العربى المشترك، فبدا الامر وكأنه مقايضة السلام مع اسرائيل بالانتماء العربى لمصر .. وتجاهل الكتاب فى الفصل السابع (دولة السلام والتعاون الدولى) الحروب العربية ضد اسرائيل واغتصاب اسرائيل فلسطين واعتداءاتها على الدول العربية المحيطة بها، وتعنتها فى اعادة حقوق الشعب الفلسطينى وحتى انه وصف حرب ١٩٤٨ بانها "هى التى صاحبت قيام دولة اسرائيل بعد انتهاء الانتداب الانجليزى على فلسطين" فبدأ الامر وكانه اعتراف بوضع طبيعى تم وليس انتزاع الوطن من شعبه.

ويعلى الكتاب من قيمة السلام عن عداها من القيم مثل قيم الثورة والعمل والبناء كما كان فى مرحلة المد القومى، بل يرى السلام مقدمة لكل النتائج القيمة الاخرى، فيقول :"يعتبر السلام من ابرز القيم المطلوبة حاليا فى المجتمع المعاصر، وبدونه لايمكن أن تتحقق اهداف التطور الذى تسعى اليها

كل دول العالم. ان التنمية والتقدم وكذلك الرفاهية والعدالة الاجتماعية، بالاضافة الى الحرية والديموقراطية وسيادة القانون وغيرها من خصائص الدولة العصرية لاتتحقق فى ظل الحروب والغزوات، وانما تزدهر فقط فى ظل السلام[٢٠]

بل لقد انعكس مناخ التراجع القومى فى مصر الساداتية على عناوين الكتب ذاتها، فقد استبدل اسم كتاب (التربية القومية)، للصف الثانى الثانوى بكتاب (الدولة العصرية) السابق الاشارة اليه، واستبدل اسم كتاب التاريخ للصف الثالث الاعدادى من (تاريخ الوطن العربى فى العصر الحديث) باسم (تاريخ مصر الحديث والمعاصر).

ويمكن الخروج بنتيجة هامة فى النهاية وهى ان المناخ السياسى المهيمن على مصر بعد كامب ديفيد وتخلى القيادة السياسية عن دور مصر القومى فى محيطها العربى قد ترك بصماته على التعليم المصرى فى تلك الفترة : فكرا وسياسة ومحتوى تعليميا، وهو مايمثل نوعا من الازمة القاسية التى مرت بها عروبة مصر فى تلك الفترة من تاريخها.

(١) سعيد اسماعيل على : درس فى أصول التربية، مجلة دراسات تربوية، رابطة التربية الحديثة، نوفمبر ١٩٨٥، ص ٨.

(٢) محسن خضر : الاتجاه القومى العربى وأثره على التعليم فى مصر من ١٩٥٢ - ١٩٨١، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية تربية عين شمس، القاهرة ١٩٨٦، ص١٤٢.

(٣) المرجع السابق ص ١٤٥.

(٤) سعد الدين ابراهيم : ثورة ٢٣ يوليو واعادة تفسير التاريخ، سلسلة الذكرى الثلاثين لثورة يوليو، ج ٣، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٤، ص ٩٥.

(٥) راجع نصوص المشاركات فى :

سعد الدين ابراهيم وآخرون : عروبة مصر، حوار السبعينيات، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام، القاهرة ١٩٧٨.

(٦) فؤاد المرسى خاطر : حول الفكرة العربية فى مصر، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصرة، سلسلة مصر النهضة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٤، ص٢٤٦.

(٧) أنور السادات : ورقة أكتوبر، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة ١٨٧٤، ص ٧٩.

(٨) وزارة التربية والتعليم : الأهداف التعليمية الحديثة، المركز القومى للبحوث التربوية، القاهرة ١٨٧٥، ص ٤.

(٩) فايز مراد مينا : مناهج التعليم العام (دراسة تحليلية)، دار الثقافة للطبع والنشر،

القاهرة ١٩٨٠، ص ٢٢٦.

(١٠) رئاسة الجمهورية : قانون التعليم رقم ١٣٩ لسنة ١٩٨١ : الاهداف والأحكام العامة للتعليم، الجريدة الرسمية، العدد ٣٤، أغسطس ١٩٨١.

(١١) نفس المصدر.

(١٢) المجالس القومية المتخصصة : سياسة التعليم، مبادئ ودراسات وتوصيات سلسلة (مصر عام ٢٠٠٠)، القاهرة ١٩٨١، ص ٢٦.

(١٣) المركز القومى للبحوث التربوية، تقرير عن تطوير التربية والتعليم فى جمهورية مصر العربية عن عامى ٧٨ - ١٩٧٩، ٧٩ - ١٩٨٠، الفصل الأول (مبادئ التربية وغاياتها وأهدافها وأولوياتها، جهاز التوثيق والمعلومات التربوية، القاهرة ١٩٨١.

(١٤) المصدر السابق ص ١٣.

(١٥) وزارة التربية والتعليم : الاهداف العامة للمواد الاجتماعية فى مراحل التعليم العام والفنى، المركز القومى للبحوث التربوية والمناهج المطورة للمواد الاجتماعية فى التعليم العام، القاهرة ١٩٧٢، ص ١٢١.

(١٦) وزارة التربية والتعليم : الاهداف العامة لتدريس المواد الاجتماعية، لجنة السياسات العامة للمناهج، واللجنة الدائمة للمواد الاجتماعية، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٢.

(١٧) نادية حسن سالم : التنشئة السياسية للطفل المصرى من واقع تحليل مضمون الكتب المدرسية، المجلة الاجتماعية القومية، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة مارس ١٩٨٢، ص ١١٢.

(١٨) محسن عوض وسيد البحراوى : أربع سنوات على التطبيع الثقافى بين مصر واسرائيل، كتاب المواجهة، لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، العدد الأول، القاهرة يونيه ١٩٨٣، ص ١٨.

(١٩) تأليف رفعت محجوب وعائشة راتب.

(٢٠) المصدر السابق ص ٩.

حروب التحرر العربى من حطين الى طابا

هل مصادفة ان تجتمع خلال شهر مناسبتان تاريخيتان هامتان مثلت كل منهما قمة فارقة فى مسيرة الأمة العربية النضالية؟

ففى الرابع من يوليو عام ١٩٨٧ مر ثمانمائة عام على معركة حطين، وقبلها بشهر مرت عشرون عاما على نكسة يونيو ..!

وفى حين مثلت الذكرى الأولى النصر الساحق ضد الغزو الاستعمارى الصليبى، فقد مثلت الثانية الهزيمة الفادحة امام التحالف الصهيونى الامبريالى!

أليس هناك خيط ممتد بين المعركتين؟

وألم يتجسد التشابه فى أن المعركتين دارتا على أرض فلسطين وحولها، وان الخصم فى الحربين كان واحدا - مع اختلاف الاسم - أتى من الغرب وأوجد قاعدة له فى الشرق.

وألم يكن قائد الجيش العربى فى المعركتين زعيما لمصر .. صلاح الدين الأيوبى، وجمال عبد الناصر، وكان منتسبا الى نفس الدولتين مصر وسوريا بقدر واحد؟ ..

وألم يكن الجيش المنتصر فى الحرب الأولى هو الجيش المصرى السورى

الفلسطينى، وكان الجيش المنهزم فى الحرب الثانية هو الجيش المصرى السورى الفلسطينى (والأردنى ايضا)؟

وهل يعيد التاريخ نفسه بهذه الكيفية المدهشة؟

أم أن قوانين الصراع فى الشرق العربى هى الثابتة؟

على أن المناسبة التاريخية الهامة تستلزم منا وقفة "استخلاص عصرية" لها، وترشيح فكرى لمجرياتها ودلالتها أكثر منها وقفة تسجيل ووصف للمعركة كما وقعت.

الايديولوجية الصليبية ..

لم تكن الحروب الصليبية مجرد حوادث وقعت فيما بين القوانين ١١، ١٤، فالبذور قد زرعت منذ أصل طويل ونمت منذ ذالك الوقت .. وكما يؤكد المؤرخ كافين رايلى "إن تاريخ الحروب الصليبية يجب أن يظهر لنا أننا قادرون على تبرير اية درجة من درجات الوحشية أوالفساد اذا ماخلعنا عليها قداسة بوصفها جزء من مشيئة الله .. ان كلماتنا لاعلاقة لها بأفعالنا فى أمور الحرب والحب .. اننا يجب ان نرى حروبنا كمغامرات مقدسة باعتبار الحروب المقدسة من أقوى موروثات ماضينا المسيحى الغربى(١).

وقد استندت الحروب الصليبية الى مضمون دينى، ولكنه مضمون كاذب وشكلى .. فنتيجه زيارات الحجاج المتزايدة فى العدد وفى التنظيم للاراضى المقدسة فى فلسطين يوحد لدى الاوربين المثل للدخول الى الاراضى المقدسة، كما ان القيمة الاخروية للقدس، والقبر المقدس والقيمة التطهيرية للحج، من

الأمور التى جعلت الحملة الصليبية واجبا مقدسا يوضع نصب أعين العامة - كما يرى شاخت - مع وجود فكرة أهمية تقديم العون المسيحين الشرقيين بحجة اضطادهم فى الشرق(٢).

والأخطر ان مفهوم الحروب الصليبية، ظل مستمرا ليشكل جوهر الايديولوجية الاستعمارية فيما بعد وحتى اليوم، وترسخت فكرة الحملات الصليبية فى الوعى الدينى السياسى فى الغرب الاقطاعى، وكانت السياسة الشرقية للأنظمة الملكية الاوروبية تتلون بلون الايديولوجية الصليبية وكانت تفسر على انها استمرار للحملات الصليبية القديمة المألوفة(٣).

ويتوقف جمال حمدان عن هذه الاستمرارية للايديولوجية الصليبية، فيلاحظ ان الحروب الصليبية ظل تيارها متصلا كالسيال الكهربائى واقرب الى صورة أرجل الجراد المنتشر اقرب منها الى صورة أسراب الطيور المهاجرة(٤).

واذا كانت السلبيات باعتراف المؤرخين الغربيين أنفسهم "درسا حضاريا قبل كل شئ لأوروبا، فقد كانت احتكاكا حضاريا بين الشرق المتقدم والغرب المتخلف(٥).

الا أن التحليل التتابعى للآثار المتشعبة لهذه الحروب عبر السنوات التالية يكشف عن خطورة الافكار التبشيرية والمفاهيم الدوجماطيقية التى طرحها الغرب حول الشرق، الا انه من الواضح كما يذهب البعض - ومنهم الجابرى - الى انه منذ الحروب الصليبية والى الاستعمار الغربى الحديث الى الاحتلال

الصهيوني، كانت الافكار التبشيرية أوالاعلامية أو الاكاديمية القادمة مع الاساطيل والطائرات وجحافل الغزاة هي الصياغة العقلية والوجدانية للقهر الاقتصادي والاجتماعي والسياسي(٦).

وأصبحت الارض بذلك مهيئة لتغلغل عملية "الغزو الثقافي" .. والتي مثلتها الحملة الفرنسية على مصر والشام عام ١٧٩٨ خير تمثيل عندما قدمت بعلمائها ومطابعها جنبا الى جنب مع مدافعها وبوارجها .. أو ليست الحملة الاعلامية في الغرب ضد كل ماهو اسلامي، وضد كل ماهو عربي في العشر سنوات الأخيرة منطوية على روح صليبية ملحوظة.

الحقائق الجيوسياسية للشرق العربي :

وطرحت الحروب الصليبية حقائق هامة، بل كشفت عنها في جلاء وبيان .. ولعل ابرز مايميز الصليبيات عن موجات الاستعمار البحري السابقة انها لم تقتصر على قوة أو دولة واحدة بل خرجت من اغلب دول غرب أوروبا وجنوبها ووسطها .. ولذا نجدها تأخذ طريقين أساسين : الطريق البرية عبر قلب اوروبا فالبلقان فالاناضول البيزنطية، وطريق البحر المتوسط، واذا كان هدفها الديني هو الاراضي المقدسة، فان الهدف الاستراتيجي اتسع ليشمل جانب الشام كله العراق والحجاز ومصر، أي، النصف الشمالي من دائرة الشرق العربي(٧) ..

ويلاحظ ان ترتيب التوسع الصليبي في الشرق (انطاكية – طرابلس – عكا) من الشمال الى الجنوب كان نفسه اتجاه التحرير ..

والهجمة الصليبية ربطت بين البعد الجيوسياسى والبعد الثقافى فى الشرق، وهو نفس ماربطت بينه التحدى الصهيونى فى قلب الشرق العربى، ولذا فكانت تهدف الى اجهاض الوجود الاسلامى فى هذا الجزء من العالم، وهذا الامتداد التاريخى يؤكد عليه أكثر من محلل لها، فهى تقع عند أنور عبد الملك فى هذا المنظور "فالحروب الصليبية انطلقت واستمرت عدة قرون ضد العالم الاسلامى بالذات وقد كان القطاع العربى من هذا العالم بالتحديد أى انها لم تهدف الى مجرد كسر الاسلام فى آسيا، وإنما ركزت كل جهودها لكسر بزوغ الاسلام فى القطاع العربى على وجه التخصيص، وقد بدأ هذا فى القرن العاشر أى منذ عشرة قرون. وليست الدولة الصهيونية على ارض فلسطين الا تكرار المحاولة الصليبية انشاء مملكة القدس بوصفها القاعدة المتقدمة لغزو دول أوروبا الكاثوليكية الاقطاعية فى العصور الوسطى. وهنا يجب ان نلحظ ان مايسمى بالموجة الكولونيالية العربية لم تبدأ الا فى القرن ١٥ تقريبا بواسطة الاكتشافات البحرية(٨).

بل إن أحد المؤرخين المسلمين أثناء الحروب الصليبية قد وضع الغزو الصليبى فى اطار تاريخى أوسع، وهو ابو الحسن على بن طاهر السلمى : فقد سجل فى كتاب (الجهاد) ان هذا الغزو الفرنجى هو أحد من ثلاث شعب من الغزو النصرانى للبلاد الاسلامية فى الاندلس وفى صقلية وفى الشام، وقد توفى السلمى بعد خمس سنوات من وصول الفرنجة للقدس(٩).

ومن المهم ان نسجل للجيوش العربية قدرة عسكرية وقتها لكى تستوعب ضغطين عنيفين فى وقت متقارب وهما الضغط المغولى والضغط الصليبى.

فعلى الرغم من ان مصر والشام حاولت .سياسة التحييد ازاء احد الضغطين تبعا للظروف وحتى لاتحارب فى جبهتين، لقد واجهت الجيوش العربية على مدى عشرات السنين كماشة الخطر الامبريالي للوطن العربي "فنصل الى حالة فريدة فى تاريخ الشرق العربى وهى ان تواجه المنطقة قوى البر والبحر فى آن واحد، أى ان تواجه استراتيجية الكماشة - كما يصفها جمال حمدان - وبالفعل نجد ان الغرب الصليبى يحاول ان يحصر الشرق العربى بين شقى الرحى، فحاول ان يتحالف مع المغول ليضع الاسلام العربى بين حلف المسيحية الاوروبية البحرية والوثنية المغولية البرية أو بين ذئاب البحر وذئاب البر ..(١٠) واثبتت المنطقة قدرتها على مواجهة الخطرين معا وفى آن واحد، فبينما ظل الصراع الصليبى مستمرا تقدمت مصر المملوكية بقيادة قطز لتعطى المغول أول وأخر انكسار لهم فى عين جالوت التاريخية.

والقيادة العربية لم تفهم تلك الحقيقة الاستراتيجية التى لمسها بوضوح قيصر وأوضحت أحد تقاليد المنطق والادراك الاوروبى وهو ان من يريد ان يتحكم فى شواطئ البحرالمتوسط لابد أن يتحكم فى شواطئه الجنوبية والحروب الصليبية لم تكن الا تعبير عن هذه القناعة(١١)..

ولعل اهم ماكشفت عنه تلك الحروب من حقائق، وهو قانون الأمن القومى العربى الأول وهو ان الشام مفتاح المنطقة، وانه اذا كانت شمال سوريا وهو خط الدفاع الأول عن الشرق العربى ومصر، فان سهول فلسطين هى خط الدفاع الثانى عن مصر، وسيناء هى خط الدفاع الأخير عنها ..

صلاح الدين كان مستوعبا لهذه الحقيقة الاستراتيجية، فلم يبدأ معركة تحرير فلسطين الا بعد أن أحكم قبضته على مصر، وضمن وحدة الممالك السورية فى المعركة معه .. والغريب أن هذا الدرس يتكرر كثيرا فى التاريخ، فنابليون ينطلق من مصر ليشب على الشام، ودولة محمد على التاريخية ارتكزت على وحدة مصر والشام، ليقيم أول دولة عربية حديثة .. وجمال عبد الناصر استجاب بآلية ذكية للحقيقة الجيوسياسية التاريخية، ونصبته الجماهير العربية زعيما لها بلا منازع رئيساً للدولتين مصر وسوريا، وكثيرا ماسيتكرر مشهد حروب التحرير فى حطين فى صفحات لاحقة، فحروب ١٩٤٨، ١٩٦٧، ١٩٧٣ تمت وسط تلاحم اداء مصرى سورى مشترك ..

ويبدو أن "القانون الغائب السابق هو الذى سيظل يحدد إلى أزمنة مستمرة وضع المنطقة وحالة التوازن الاستراتيجى .. ولأهمية موقع الشام بالنسبة لمعركة تحرير الساحل وفلسطين من الصليبين لم يكن صلاح الدين بمصر سوى خمس سنوات طوال حكمه والباقى قضاه بالشام .. ويؤكد ابن جبير الرحالة الشهير هذه الحقيقة فى كتابه (تذكرة الاخبار عن اتفاقات الاسفار) قائلا "هذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخرا، والله يمتع ببقائه الاسلام والمسلمين، ليس أمام هذه البلدة، بلدة اخرى للاسلام، والشام أكثره بيد الافرنج، فسبب الله هذاالسلطان رحمة للمسلمين، فهو لايأمن الراحة، ولايخلد الى دعة، ولايزال سرجه مجلسه .. أننا بهذه البلدة – مصر – نازلون منذ شهرين وقد خرج لمنازلة حصن الكرك وهو محاصر له حتى الان، والله تعالى

يعينه على فتحه ".. التلاحم بين أرض الشام وأرض مصر هو ضرورة استراتيجية عسكرية ومن ثم اقليمية، وإن القوة التى تريد لنفسها ان تتمسك بأى من هذين القطرين لابد وان تتحكم فى الجزء الآخر[١٢].

قانون التجزئة / الوحدة:

يدهشنا ذلك الالتفاف الكبير للحملات الصليبية على المدن والحصون العربية، حتى انها تساقطت واحدة وراء الأخرى فى وضع أشبه بالانهيار صحيح أن القوات العربية المدافعة قاومت بقدر ماتستطيع، الا انه فى نفس الوقت لم يستشعر العرب بهذا الخطر بشكل يناسب خطورته ..

لقد تلقى العرب أخطر طعنه ولم يفوقوا بعد من تأثير المغول حتى ألم بها تحدى غير عادى أستمر ثمانى حملات على امتداد مائتى عام تقريبا .. لقد كانت المنطقة تعيش فى وضعية تجزئة وتشتت، ولم يتسنى لها أن تبدأ حرب التحرير بقيادة صلاح الدين مع الحملة الصليبية الثانية إلا بعد ان انتهت حالة التجزئة ..

ويسجل شاخت هذه الوضعية مدركا خطورتها وتأثيرها على نجاح الغزو الصليبى فى بدايته .. ففى أول الأمر استجاب العالم الاسلامى لفقدان بلاد الشام بلامبالاة تكاد تكون كاملة .. فالجهاد الاصلى كان قد انتهى منذ زمن طويل، وكذلك كانت روح الجهاد قد ضاعت ونسيت وكان العصر عصر عنف وتغير .. وتعرضت فيه البلاد الاسلامية لسلسلة كاملة من الهجمات والغزوات، من آسيا الوسطى وأفريقيا البربر والعالم المسيحى، وحتى فى حلب ودمشق

القاهرة لم تثر خسارة فلسطين الساحل السورى الا القليل من الاهتمام، وفى أمكنة آخرى لم تكد تلحظ على الاطلاق "ويجب أن نلحظ ان ردود الفعل وظهور المقاومة الاسلامية للفرنجة كانت قد تأخرت قليلا فى المنطقة، ويعود ذلك الى انها كانت مسحوقة بالغزو السلجوقى من قبل وممزقة بتناحر السلاجقة أنفسهم فيما بينهم مما جعل تنامى القوى الاسلامية ولقاءها بعضها مع بعض لا يتمان الا بالتدريج البطىء(١٣).

لقد كان العصر عصر تنازع الاتابكيات كما يصفها جمال حمدان "لذلك سبب رئيسى هو عدم وحدة الشام العربى تقليدية وتمزقه الى كوكبة متنافسة من دول المدن والولايات والاتابكيات الضئيلة الحجم والوزن غالبا .. ومع ذلك فان توحيد الشام العربى بعد ذلك ومساندة ظهيرة الى الشرق لم تكفى لرد العدوان، وكان تحرير الاراضى المقدسة رهنا باتحاد قوة مصر البشرية مع قوة الشام" (١٤)..

الزعامة العربية من صلاح الدين الى عبد الناصر :

اذا قارنا بين زعامتين عربيتين تاريخيتين، الاولى من العصر الاوسط (الناصر صلاح الدين) والثانية من التاريخ المعاصر (عبد الناصر) فيمكننا أن نرصد عدة أوجه للتشابه :

- فكلاهما كان حكاما لمصر، ولكنه استمد زعامته القومية فى أرض الشام.
- وكلاهما وحد مصر وسوريا.

– وكلاهما استمد زعامته القومية من معركة تحرير كبرى (حطين مقابل تأميم القناة).

– الا ان صلاح الدين مات منتصرا، وعبد الناصر مات وهو يعمل لتجاوز هزيمته.

ترتبط قيادة صلاح الدين القومية بالنضال من اجل تحرير الوطن من الاستعمار، والنضال من اجل توحيد الوطن، فهو كما يحدد أنيس صايغ متجسدا في صلاح الدين "تحرير الوطن من السلطات الاجنبية وتوحيد اقطاره في دولة قومية واحدة، كما فعل صلا ح الدين، واقامة حكم حازم مهاب قوى يعدل بين المواطنين ويقطى على المظالم الكثيرة"(١٥).

حقق صلاح الدين مبدأ الحسم العسكرى بنجاح .. فمبدأ حسم الصرا ع لمصلحة المسلمين كان العامل الاساسى فى فشل الحروب الصليبية بمجموعها .. وارتبط مبدأ الحسم باستخدام القدرة الحركية للهجوم، وهو ماتحقق فى حروب صلاح الدين وخاصة فى حطين والكرك وفتح بيت المقدس وطبرية وكانت وسيلته عنده هو تطويق قوات الصليبين من سائر الجهات ثم تدمير قواته المقاتلة، ومثلت حطين نموذجا ناجحا لمبدأ الحسم ..

ونجح صلاح الدين – كقائد عسكرى – فى تطبيق نظرية الأمة المحاربة المرتكزة على وحدة الجيش العربية المختلفة وفى جميع الميادين اقتصاديا وسياسيا ومعنويا ..

ومثلت معركة حطين فى النصف الثانى من القرن ١٢ "أرماجدون

الصليبيات وبداية نهايتها والتى جاءت فى النصف الثانى من القرن ١٣وناهيك عن سماحة صلاح الدين الاسطورية مع اعدائه بعد استرداد القدس، إلا أن توحيد صلاح الدين لمصر والشام اصبح فى الفكر العسكرى الثقل الاساسى فى نصر حطين .. وكما يؤكد كافين رايلى "لقد تمكن المسلمون من استعادة القدس عام ١١٨٧ بقيادة السلطان صلاح الدين الذى وحد سوريا ومصر، وبالرغم من ان المسيحيين شنوا حملة صليبية ثانية من ١١٤٧ الى ١١٤٩ فان صلاح الدين عامل سكان الصليبين الأوائل فى القدس بسخاء عظيم"(١٦).

وتوقف مؤرخ أخر هو شاخت عند زعامة صلاح الدين، فبعد قرن من بدء الحروب الصليبية اثار العدو الاكبر صلاح الدين اعجابا واسع الانتشار بين الغربيين، فقد شن الحرب بانسانية وفروسية، رغم قلة من بادلوه هذه المواقف وأهمهم ريتشارد قلب الأسد(١٧).

أصبح صلاح الدين بعد هذه الحرب أسطورة عربية، ويربط مؤرخ سوفيتى هو ميخائيل زابوروف انتصارات صلاح الدين بقدرته على توحيد العرب فى حقبة قصيرة وحد صلاح الدين مصر وقسم كبير من سوريا وبلاد مابين النهرين، ففى سنة ١١٧٤ استولى على دمشق وحماه وحمص وغيرها من المدن، وفى سنة ١١٨٢ فتح حلب، وفى سنة ١١٨٦ اعتبر حاكم الموصل زنكى الثانى نفسه تابعا للسلطان صلاح الدين الذى صار أقوى من فى العالم الاسلامى ومن حيث الجوهر وقع الشرق الافرنجى فى طوق دولة صلاح الدين. وقد وجه صلاح الدين جميع موارد الدولة الى النضال ضد الافرنج(١٨).

أليس غريبا أن يكون هدف العرب التحررى بعد ٨٠٠ سنة من حطين هو تحرير القدس والتى عادت من جديد فى قبضة الغرب بواسطة قاعدتهم المتقدمة فى المنطقة، ولكن فى حين جعل صلاح الدين تحرير القدس والأراضى العربية المتحدة هدفا استراتيجيا الا أن الحقبة المعاصرة من تاريخنا تفتقد مثل هذه الأولية، وحيث يصبح فى بعض "الاتابك" العربية المعاصرة هدفها الأول هو : تأمين نظام الحكم ..

وهكذا أستحق صلاح الدين هذه المكانة التاريخية، لقد توحد بقضية العرب القومية، ووحد مصر والشام، وخاض حرب تحريرة، وانطلق من مصر وهى شروطه الاساسية لأى زعامة عربية كاريزمية ...

ومن ثم استحق صلاح الدين أن يكون عنصر رئيسيا فى الضمير العربى المعاصر "ويجدر بنا إلا ننسى أن صلاح الدين نفسه بطل الاحلام العربية فى عملية الانقاذ جاء به العنف وعاش فى المعركة".

من حطين الى طابا :

مامدى التغيير فى الخريطة العربية بعد ٨٠٠ سنة من حطين؟

لقد استمر مفهوم التحرر العربى، واحتفظ بحيويته وأن تغير مضمونه .. فبينما مثل التتار والصليبيون مصدرى التهديد الرئيسين للأمن القومى العربى فى الماضى، فان مصدرى التهديد الرئيسيين اليوم هى اسرائيل والقوة الامبريالية المساندة لها وفى مقدمتها الولايات المتحدة الامريكية، والمصدر الثانى هو عجز النظام الدفاعى العربى عن مواجهة خطر المصدر الأول.

لقد تغير مفهوم التحرر الوطني والقومي، فلم يعد عسكريا فقط، ويتمثل في الدفاع عن الحدود قبل كل شئ، بل اصبح يتضمن قدرة اقتصادية وعلمية وتكنولوجية مستقلة، واصبح يتضمن تجاوز وضع التبعية ويرتبط بواقع التخلف الذى تعانى منه الأمة العربية، فقد أدى الضغط الاستعمارى المتوالى إلى الاجهاز على الهياكل الاقتصادية والاجتماعية التقليدية لصالح نماذج تنموية مشوهه هى فى أغلب الاحيان صور رديئة ومشوهه للنموذج الرأسمالي، وبعد أن كان جهاد الأمة العربية أيام الصليبين منصبا على تحرير الأرض أصبح النضال اليوم مركبا يتضمن تحرير الأرض المحتلة (الضفة الغربية والقدس - الجولان - غزة - وطابا) واقامة الوطن الفلسطينى من ناحية، وتحرير الإرادة العربية من وضعية التبعية المتراكمة فى اطار نظام عالمى رأسمالى بآلياته من قيم وتقسيم العمل ..

ولقد أجهض المشروع الوحدوى أو كاد بسبب تعثر التجارب الوحدوية الماضية وفشلها من ناحية، وبسبب وقوع الوطن العربى تحت سيطرة الثروة لا الثورة، وحيث أصبحت غاية الخطاب العربى السياسى هو تحقيق (التضامن العربى ووحدة الصف) خاصة مع وقوع القوة الثورة العربية التقليدية تحت الضغط الاسرائيلى والإيرانى والامريكى.

التهديد الداخلى المتمثل فى ضغط النظم القمعية، وعدم الاستقرار السياسى وفشل تجارب التنمية وتهديد الطائفية وعدم اتاحة المناخ الديموقراطى وعموما يطرح على مفهوم حرب التحرير العربية المعاصرة

تجاوز مفهوم القدرة العسكرية الى مفاهيم وابعاد اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية وعلمية.

تجميد فاعلية مفتاح المنطقة العربية، وهى مصر، وقطع أواصر القاء بين مركز الثقل العربى (مصر) ومركز الثقل الحركى(سوريا) وربما يكون الثابت رقم واحد فى المنطقة هى أن نهضة مصر هى الشرط الضرورى لنهضة العرب، إذا هى بتعبير الصليبين "رأس الأفعى ومستودع الامتدادات" ويوم تسترد مصر فاعليتها القومية وتتحرر يدها الطولى فان قضية التحرر العربى قد تشهد منعطفا جديد يمتد من صلاح الدين الى ناصر ..

الهوامش

(١) كافين رايلى : الغرب والعالم، ترجمة عبدالوهاب المسيرى وهدى عبد السميع، عالم المعرفة (٩٠)، ص ٢٠٣.

(٢) شاخت وبوزورز : تراث الاسلام، ترجمة محمد زهير السمهورى، عالم المعرفة (٨٥)، ص ٣١.

(٣) ميخائيل زابوروف : الصليبيون فى الشرق، دار التقدم، موسكو عام ١٩٨٦، ص٣٤١.

(٤) جمال حمدان : استراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٣، ص ٣٤.

(٥) Mackinder, H.J., Democratic Ideals& Readlity, Pelican books,1944. London, p38.

(٦) محمد عابد الجابرى : من أجل الإستقلال التاريخى للذات العربية، ندوة الغزو الثقافى الامبريالى الصهيونى للأمة العربية، تونس، ٣/٣٠ - ٨٤/٤/٧.

(٧) جمال حمدان : مرجع سابق، ص ٢٣.

(٨) أنور عبد الملك : الفكر العربى فى معركة النهضة، دارالاداب، بيروت، ١٩٨١، ص٢١٥.

(٩) شاخت وبوزورز : تراث الاسلام، مرجع سابق، ص ٢٧١.

(١٠) جمال حمدان : استراتيجية الاستعمار والتحرير، مرجع سابق، ص ٣٩.

(١١)، (١٢) حامد ربيع : الثقافة العربية بين الغزو الصهيونى وارادة التكامل القومى، دار الموقف العربى، ص ١١٢، ص ١٣٥.

(١٣) شاخت وبوزورز : مرجع سابق، ص ٢٧٣.

(١٤) جمال حمدان : استراتيجية الاستعمار والتحرير، مرجع سابق، ص٣٥.

(١٥) أنيس صايغ : من فيصل الأول الى جمال عبد الناصر، منشورات عربية المحرر والمكتبة المصرية، بيروت ١٩٦٥، ص ١٩.

(١٦) كافين رايلى : الغرب والعالم، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

(١٧) شاخت وبوزورز : تراث الاسلام، مرجع سابق، ص ٤٥.

(١٨) أنيس صايغ : مرجع سابق، ص ٢٨.

النضال القومى
من مسألة الأمة إلى الدائرة السوسيولوجية

نشأت القومية فى العالم الثالث فى ظروف مغايرة للظروف الأوربية، وكانت فى جوهرها حركة تحرر وطنى ضدالاستعمار، ولذا فقد مثلت قوة تقدمية هائلة، متجاوزة أوضاع الاحتلال التخلف الى أفاق التحرر والتقدم، ولذا فقد حملت القومية فى البلدان المتخلفة الى جانب عداءها للاستعمار والامبريالية، سعيها للتوحيد – وخاصة فى العالم العربى – لتخطىَ التجزئة الى تحقيق الوحدة ..

ولايتوقف قيام الدولة القومية فى العالم الثالث على التخلص من الاستعمار وتقديمه ثقافة مضادة للثقافة الاستعمارية فحسب بل يهدف الى ماهو أبعد من ذلك، أى اقامة سلطة يكون هدفها دفع القوة الوطنية من التخلص من التخلف وهذا وحده كافى لقيام الدولة القومية أو لشرعية قيام الدولة القومية. لقد ظهرت فكرة القومية العربية السياسية بمعناها الحديث فى القرن الماضى، بفعل عوامل متداخلة ولم يكن ظهورها بدرجة واحدة فى مختلف البلاد العربية، فقد اختلطت العروبة بالإسلام فى فكرة الجامعة الإسلامية بالجزيرة العربية والمغرب العربى، فى حين أختلطت الدعوة الشرقية والرابطة الإسلامية بالقومية المصرية فى مصر، فى نفس الوقت الذى كانت الفكرة

القومية فيه تتسم بالقوة والوضوح فى الشام حيث أخصبها المفكرون المسيحيون هناك بسبب اتصالهم بالغرب أكثر من غيرهم، وعن طريق المدارس التى اقاموها فى سوريا ولبنان ..

ولقد بدأت حركة البعث القومى كحركة فكرية أدبية، ثم اتجهت الى الابحاث التاريخية والسياسية بفعل المفكرين والمدارس السابقة. ويرى أنيس صايغ خصوصية هامة للأتجاه القومى تتمثل فى صيغته الاسلامية والعربية، فقد كانت الفكرة العربية حاصل تصادم الاتجاهين الشرقى المحافظ، الاسلامى النزعة، والغربى المتطور، الاقليمى القومية، فافسح لها المجال لكى تبرز نواتها.

ويمكننا أن نشير الى الدورالثقافى والفكرى الذى قام به الكتاب والادباء القوميون بنشر الدعوة القومية العربية، والدفاع عنها وشرحها من خلال الصحف والسجلات التى تكاثرت بشكلا ملحوظ فى تلك الفترة وخاصة فى الشام، فقد ارتفع عدد الصحف العربية الصادرة قبيل الحرب العالمية الأولى ارتفاعا كبيرا من ٢٩ صحيفة الى ١٦٨ فى بيروت، ومن ٣ الى ٨٧ صحيفة فى سوريا، ومن ١ إلى ٣١ صحيفة فى فلسطين، ومن صحيفتين الى ٧ صحف فى العراق، ومن لاشئ الى ٦ صحف فى الحجاز.

وفى مصر، أدت المشاكل المالية التى أوجدها اسماعيل مع أوربا الى اتجاه الاهتمام نحو المشاكل الداخلية، ووطد هذا التحول الاحتلال البريطانى الى مصر عام ١٨٨٢، وشغلت تلك الظروف السياسية والاقصادية فى مصر عن اتصالها بسائر البلدان العربية، وبمعنى أخر أدى هذا السد المعنوى بمصر الى الانعزال عن سائر اقسام العالم العربى انعزالاً يكاد يكون تاما.

لقد تنوعت العوامل التى أثرت على نشوء الاتجاه القومى العربى فى النصف الثانى من القرن الـ١٩ بين حالة التدهور والتفتت فى الدول العثمانية، ونمو حركة التتدريك التى استمرت فى تجاهل حقوق الروافد العربية فى الدولة العثمانية مما أشحذ مطالبة زعماء العرب بالاستقلال التام، والسيطرة الأوربية، والعامل الاقتصادى متمثل فى شرائح اجتماعية جديدة من البرجوازية التى خلقتها الضغوط الاقتصادية والسياسية والعسكرية، والتى تكون اغلبها من طبقة التجار والأعيان التى وجدت فى الفكرة القومية أطار لحماية مصالحها ضد الاستعمار التركى، وخامسا تأثير الانفتاح على الغرب الذى أدى بل الى بلورة المفاهيم القومية فى الشرق.

ويمثل ساطع الحصرى ابرز المفكرين القوميين الذين ساهموا فى نشر الدعوة القومية باعتباره الداعية البارز لفكرة القومية العربية وقضية الوحدة العربية فى المرحلة الممتدة بين أواخر الحرب العالمية الأولى وحتى بروز الفكر القومى والبعث فى أواسط الأربعينيات والناصرية فى الخمسينيات. وخاصة أن جهوده الفكرية فى مصر ساهمت فى التفات الزعمات الفكرية والسياسية المصرية الى هذه القضية والتعرف عليها، فى مواجهة الفكر القطرى وقد ساهم فى نمو وتدعيم الدعوة القومية المفكرون القوميون الاحزاب القومية وفى مقدمتها حزب البعث العربى الاشتراكى، وكان أهم انجازاته هو حسم مسألة وجود الأمة العربية، والدعوة للنضال على أساس قومى كما تتضمن برنامجه ضرورة تحقيق الوحدة القومية من خلال الكفاح الشعبى فى مواجهة الإمبريالية والرجعية، وإذا كان الحزب قد تخطى منظور ساطع الحصرى فى رؤيته تجاه تحقيق الوحدة من الكتلة العامة من الجماهير الى تحققها على

أيدى نضال الحزب، الا أن الناصرية بما قدمته للقضية القومية على أرض الواقع قد تخطت نضال الحصرى وحزب البعث معا.

وساهمت وجهود حركة القوميين العرب في اثراء الاتجاه القومى العربى في تلك المرحلة التى سميت مرحلة الدعوة الأيديولوجية التى بدأت بساطع الحصرى الذى كرس جهده من اجل غرس القيم والمثاليات العليا التى تتقدم بها الفكرة القومية الى العقل العربى، مدافعا عن هذه الدعوة بشدة ضد الاتجاهاهت الاقليمة الرافدة وربما كان وجه القصور فى الدعوة القومية فى السنوات القليلة عدم التركيز على المسألة الاجتماعية والمسألة الاقتصادية بشكل كاف، وأهملت تناول تصور البنى التحتية والهياكل الاقتصادية وقد امتد هذا القصور حتى نهاية الستينيات بشكل عام.

من مفهوم الأمة الى الدائرة السوسيولوجية :

كانت تركيز الفكر القومى فى البداية على مسألة الأمة باعتبار أن مقولة الأمة هى الجسر الذى ينقل العرب من التأخر الى التقدم ومن التجزئة الى الوحدة، وأن وعى الشعوب بمسألة الأمة هو الدافع نحو تحقيق ذلك، فالأمة توجد من خلال العناصر الأساسية المكونة لها، وإذا نجحت هذه العناصر فى توليد شعور جماعى لدى الجماهير بانتمائهم الى قومية واحدة، ويناضلون من اجل تجسيد الوحدة السياسة والوحدة القومية في نفس المركب، عندئذ يشعر الشعور القومى .. فالقومية نظرية فى الأمة أولا وأخيرا، الأمة هى العصب المحرك فى فكرة القومية، والناصرية أسهمت فى بلورة المفهوم، فالدستورالمصرى ينص على أن "الشعب المصرى جزء من الأمة العربية"

والأمة تجمع بين العناصر الثلاثة القومية فى وحدة عضوية (اللغة – التاريخ – الأرض المشتركة).

لقد اعتبر المفكر القومى العربى – فى مرحلة الأولى – مسألة الوحدة العربية تحصيل حاصل لمقولة الأمة، فالأمة أولا ثم الوحدة .. ومن ثم تركز فى مرحلته الأولى على عوامل وحدة اللغة، ووحدة الثقافة، ووحدة التاريخ، ومع تجربة الوحدة الكبرى بين مصر وسوريا داخل الفكر القومى مرحلته الثانية وهى مرحلة صياغة (نظرية دولة الوحدة) وشهدت تلك المرحلة عناية الفكر القومى بمسألة قوى الوحدة وجماهيرها .. أى انتقال من مرحل النظرية (الدعوة الايديولوجية) الى مرحلة الممارسة (دولة الوحدة بمضامينها السياسية والاجتماعية) لقد طرح الانفصال، وانكسار الوحدة، صيغة التزامن بين الثورة السياسية والثورة الاجتماعية، بل تجاوز عبد الناصر هذه الصيغة حينما طرح هدف الثورة الاجتماعية على هدف الاستقلال، فالمواجهة مع اسرائيل ليست مواجهة بينها وبين كل العرب، وانما هى مواجهة بينها وبين العرب التقدميين وحيث تقف فيها الرجعية العربية فى الموقف نفسه مع اسرائيل. وهكذا تطورت النظرة القومية للناصرية عندما طرحت عملية تحقيق (الثورة العربية) والتى بدأت مع انتهاج النهجة الاشتراكي وبداية التحول الاشتراكي فى مصر كما نظر له الميثاق، وان كانت هذه العملية قد تعرضت للانتكاسة واضحة بعد هزيمة ١٩٦٧.

وتلاحظ مارلين نصر ان مفهومى "الثورة العربية" و"القومية العربية" كحركة أنهما متشابهان على الرغم من ان "الثورة العربية هى أكثر دقة من حيث الأهداف واكثر جذرية من حيث تحديد أعدائها الاجتماعيين والاقتصاديين،

مما يفرض أن مفهوم الثورة العربية أنطلق من مفهوم القومية العربية، وأن لمفهوم "الثورة العربية طابعا أقل عفوية من "حركة القومية العربية" فهو ينطوى على عنصر تدخل تاريخى : أن عبد الناصر أكثر ارادية وأكثر توجيها فيما يتعلق بالثورة العربية فهو يدعو الى تحقيق الثورة العربية فى كل قطر عربى فى حين "وجود" حركة القومية العربية فى كل بلد عربية. وإن عبد الناصر لم يتخلى بصورة نهائية عن استعمال مفهوم القومية العربية كحركة بعد ان تبنى مفهوم "الثورة العربية" وهذا يتوقف على الظرف السياسى.

وفى السبعينيات والثمانينيات دخل الفكر القومى مرحلته الثالثة هى مرحلة "وقف التفسخ القومى" وهى مرحلة دفاعية شبه أنتكاسية، حيث أنشغل الفكر القومى العربى بالدفاع عما تحقق من انجازات قومية سابقة وسط مناخ كان يشيع التشرذم والانقسام، وخاصة مع تحول الوطن العربى من "عصر الثورة" إلى "عصر الثروة" أى عصر الحقبة النفطية وماستتبع ذلك من تحول مركز القيادة العربية الى الخليج، وقد صاحب ذلك شيوع أوضاع التبعية وزيادة عمق الاختراق الامبريالى والصهيونى للجسد العربى، وخاصة بعد ان اختارت القيادة السياسية فى مصر خيار الصلح والمهادنة، والخروج من ساحة الصمود العربى، وانتقال مركز القيادة القومية من القاهرة الى خارجها والانقسام حول تصور مواجعهة الصراع العربى الاسرائيلى الى ثلاثة معسكرات ..

معسكر الرفض، ومعسكر التسوية ومعسكر الصلح، والذى تمثله جبهة الصمود والتصدى، والدول الخليجية النفطية وتونس والأردن والمغرب ومصر على الترتيب لقد تركت هذه الأوضاع الصعبة بصماتها على حركة الفكر

القومى والذى كان مناط بها أن تنتقل الى دائر أكثر حداثة وعمقا وهى دائرة العقلانية العلمية والعملية الاجتماعية، ولكنه بدأ مرتبكا لاهسأ وراءه محاولات رأب الصدع وتضميد الجراح والمصالحات الظاهرية وامتصاص الضربات المتوالية، فانشغل عن تطوير نفسه، ووضح ان مؤثرات الواقع تقوده وتحدد مساراته، وخاصة أن هذه الحقبة النفطية، حقبة التراجع القومى، كانت فى نفس الوقت حقبة اليمين، ليس داخل الأنظمة الحاكمة فقط بل داخل المقاومة الفلسطينية أيضا.

والتطور الطبيعى الذى يجب أن ينتقل اليه الفكر القومى، وهو يسعى نحو هدفه الا بعد وهو تحقيق الوحدة العربية الشاملة وإقامة المجتمع القومى المتقدم، وهو ان ينتقل الى الدائرة السوسيولوجية، وهى مرحلة مابعد مرحلة الايديولوجية، ومرحلة دولة الوحدة، ومرحلة التراجع القومى، وحتى يرتبط بواقع وهموم الجماهير والتى تزداد معاناتها مع زيادة وطأة هيمنة (الدولة) على المجتمع ودفع تكاليف الحفاظ على النظام، وكلما نجحت النظم العربية الحاكمة فى المحافظة على مقاعدها زادت فى المقابل معاناة الجماهير، وخاصة إن هذه النظم تلجأ الى القمع والحكم البوليسى لتحقيق أمنها، كما أثر فشل التجارب التنموية ذات الأساس القطرى لا القومى على زيادة متاعب هذه الأنظمة، وواكب ذلك عن أنخفاض أسعار البترول، وارتفاع اسعار الواردات وتضخم الديون الأجنبية.

وهذا الانتقال مقدمة ضرورية حتى يواكب الفكر القومى تطور الظاهرة القومية فى السياق التاريخى المحدد والمحيط الاجتماعى الخاص ووفقا لقوانينها الذاتية.

وتأتى أهمية المضمون الاجتماعى للدعوة القومية، من ان مشكلات التحديث والتنمية خلقت ضغوط ومطالب اجتماعية جديدة لم تتأهب لها حركة القومية العربية أو على الأقل تقدير كانت الحدة والسرعة بما لم يمكن هذه الحركة من الاستجابة لها على الوجه المطلوب.

ان تنوع الاتجاهات واستمرار الازمات الاجتماعية فى وقت لاتستطيع الحركة القومية مواجهتها يثير موضوع الطبيعة الايديولوجية بالدعوة القوميةومشكلتها.

وهذا الطرح يستدعى أن يلتفت الفكر القومى - فى تصورنا - وهو يقف على مشارف التسعينيات* - ومقتربا من نهاية القرن امام العديد من الموضوعات الفكرية، أو الشكليات التى تتضمنها الدائرة السوسيولوجية.

أولا : الموقف من قضية الصراع الطبقى، واعمال التحليل الفكرى فى البعد الاجتماعى الطبقى وخاصة مع تغيير الخريطة الاجتماعية الاقتصادية منذ دخول حقبة النفط، وانتهاج سياسات اقتصادية معينة (الانفتاح الاقتصادى فى مصر على سبيل المثال).

إن الحركة الوطنية العربية مطالبة بإنتقاد التحليل الطبقى للواقع الاجتماعى، كما أن التحليل الطبقى مطالب بمواجهة المسألة القومية بحيث يصبح التحليل القومى جزءا أصيلا من نظرته للواقع العربى "يقول سمير أمين" إن الاطار الذى يحدث ضمنه الصراع الطبقى هو إطار قومى وقمع شعوب المنطقة ليس قمعا اقتصاديا فحسب بل هو ايضا قمع قومى.

إن الدمج بين التحليل الطبقى والتحليل القومى سيسمح بمزيد من القدرة

---

* كُتب هذا الفصل قبل كارثة الكويت.

فى تفهم الواقع العربى وفى حل مشكلاته المستعصية. لن تعمل الطبقة الحاكمة فى سبيل القضايا العربية بما فيها الوحدة لمجرد انها عربية وتقول بالانتماء العربى . لقد تبين ان الاعتماد على الطبقات العربية الحاكمة كاد أن يكون مميتا بالنسبة للقضية الفلسطينية ومن الواقع أن المتمردين أيضا لم يؤيدوا الحركة الوطنية التقدمية لمجرد أنهم محرومون.

ثانيا: مسئولية الفكر القومى فى حسم مسألة الهوية، بما يعنى ذلك من القيادة النظر فى موقف هذا الفكر من التيار الاسلامى وما حمله من مستجدات نظرية توافقت – أو اعقبت المد الاسلامى النشط وتحديد موقعه منه، ونقاط التفاعل، وبذل مجهود أضافى فى دحض جوانب التناقض المصطنعة وتحديد مساحة الاختلاف معه..

كما تتضمن تلك المهام أعادة النظر فى قضايا الأقليات وقضية أولويات العمل القومى فى مسيرته المقبلة قضايا تحرير فلسطين والتنمية والوحدة العربية.

ثالثا: أن يقدح الفكر القومى زناده فى واحدة من أصعب التحديات التى يواجهها وفى مسألة المضمون الاقتصادى والاجتماعى للنضال القومى، أو تحقيق التنمية، وبحث تظل قضية تحقيق التحرر الوطنى ناقصة شكلا ومضمونها فى غياب انجاز تنموى حقيقى، ونضال مستميت من ناحية ثالثة من أجل تحقيق الوحدة العربية:

وبحيث يعنى التحرر الوطنى وجهية المتكاملين: حرية الوطن وحرية المواطن، وهذا يطرح بدوره المسألة الديمقراطية وضرورة الوصول الى صيغة ديمقراطية حقيقة تتجاوز البعد الواحد الى أبعاد متعددة، وتسمح للتيارات

المختلفة بطرح نفسها بشكل كاف على المساحة، لكن هذا يقابلة من الطرف الآخر النضال من أجل تقليص نفوذ الرجعية والطفيلية والكومبرادورية، يمكن أن نسترشد بفهم عبد الناصر- في هذا العدد- للحل الاشتراكي، وبحيث عنت الاشتراكية انتزاع السلطة السياسية لصالح الشعب.

ويتسع مفهوم المضمون التنموى للمسألة القومية، حيث يعنى فى تفسير آخر- أيضا- قيام حركة احياء حضارى ترد للمجتمع العربى قدرته على التجدد ذاتيا وتفتح أمامه الإبداع، ولايتأتى هذا إلا بتحرير الانسان العربى من العوز والجهل، وتحرير العقل العربى من السلفية المتحجرة التى ترفض الاجتهاد والتجديد.. وكذلك من الاتباعية وما تولد، من تبعية لكل أو جل ما تتعلمة من الدول الصناعية المتقدمة، وتحرير الموارد العربية من صفوف السيطرة الخارجية والاحتكار الداخلى. وبهذا وليس بأقل منه يمكن أن تصل الى اسهام جديد فى الحضارة البشرية ياخذ عن الغير ولكن لايكتفى بمحاكاتهم، ويبنى على أفضل مافى التراث دون انغلاق عليه أو تكفاء على الماضى.

وان كان التصور السابق يتسع ليشمل الأبعاد الفكرية والسياسية لمفهوم التنمية. ان العملية التنموية- من خلال طرح قومى- تعيد مجددا طرح العملية الاجتماعية- الاقتصادية وما يعنية ذلك من تناول مسألة تحقيق العدالة الاجتماعية المتصلة بتحقيق الديمقراطية الاشتراكية، الديمقراطية بطرحها العربى وهذا يعنى بدوره- استنادا الى معطيات دولية واقليمية- ان انتهاج استراتيجية التنمية اعتمادا على الذات العربية - وفق رؤيه تكاملية هى الطريق الوحيد لتحقيق مجتمع الوفرة وعدالة التوزيع وتعود الدائرة لتكتمل

عندما ترتبط هذه الاستراتيجية بتحقيق الاستقرار الوطنى والتخلص من التبعية- بأشكالها المعقدة- وضرورة تطوير النظرة القديمة الى سياسة (المركز- الاطراف) ويتقلص دور الشركات متعددة الجنسيات الى أقل درجة ممكنه وتلخيص العملية السابقة يتلخص فى ربط القومى بالتنموى والذى يحقق المحتوى السوسيولوجى للنضال القومى.

رابعا: إن الحديث عن هذا الانتقال- من مفهوم الأمة الى الدائرة السوسيولوجية يطرح مجددا الاطار السياسى للعمل القومى وأهمية ضرورة تأسيس النضال القومى على أساس قومى لاقطرى، وهذا يرتبط بدورة بعملية تحليل الواقع واعادة تركيبة، فتخطى الواقع الاقليمى التجزئى يحتاج الى اكتشاف القوانين الداخلية لعملية النضال القومى.

وبعد انتكاسة السبعينيات والثمانينات* يجب اعادة التأكيد على المقولة الرئيسية فى حركة العمل الوحدوى وهى (إن الوحدة العربية ضرورة ومصير)..

لقد كان الدرس الحقيقى الذى خرجت به القوة الوحدوية فى منتصف الستينيات هو أن الوحدة كعمل سياسى باعتبارها التجسيد العملى لفكرة القومية العربية، لها من المتطلبات والشروط والخطط والاستراتيجيات مايحتاج الى مزيد من البحث والتدقيق، وانها فى ذاتها كعملية سياسية تكاملية لها مناخها وظروفها المتميزة، وانه لايكفى أن تكون الايديولوجية القومية مقنعه ومتكاملة نظريا حتى تتحقق الوحدة تلقائيا، وانما يتوجب النضال المستمر مع ظروف الواقع الموضوعية فى المنطقة العربية للوصول الى الشكل الملائم والصالح للوحدة.. والوحدة من هذا المنطلق ضرورة تاريخية وليست حتمية

* وانتكاسة التسعينيات أيضا (كارثة الكويت).

تاريخية ميكانيكية تتحقق بشكل عفوى طبيعى، بل تتحقق هذه الضرورة التاريخية بالممارسة النضالية ضد أوضاع التخلف والتجزئة والتبعية، ردود المثقفين هنا هو تعيشة الجماهير وتحريكهم- بالعاطفة والوعى معا- تجاه الانخراط فى هذا النضال المقدس فتصبح الوحدة شغلها الشاغل (ومع استثمار أقصى مايمكن أن تقدمه الجهود السلطوية الفوقية لصالح هذه العملية ولو بشكل مرحلى).

لقد كانت استراتيجية الاستعمار ترمى الى منع قيام الوحدة العربية لان هذه الوحدة ان تمت، ستكون ثورة باتجاهين: ثورة فى الوجود العربى من شأنها ايجار الحلول الجذرية الحاسمة لمعظم تناقضاته المحلية أو القومية، وثورة على مصالح الاستعمار من شأنها قلب موازين القوى فى العالم والاسهام فى تغيير الواقع العربى المتردى وتحويلة الى قوة هجومية ضد مواقع الامبرالية.

ان ترافق المهام الاربع السابقة تعيد طرح المسألة القومية برمتها، فتنقلها من موقع التخندق الراهن، من مرحلة (وقف التفسخ القومى) ذات الطبيعة الدفاعية الانتكاسية، الى مرحلة الدائرة السوسيولوجية. هى المرحلة الرابعة لتطور النضال القومى بدءا بمرحلة (مسألة الأمة) ومرورا بالمرحلتين الثانية الثالثة – وفقا لهذا التصور المبدئى للدراسة – وهذه المهام من شأنها أن تعطى للنضال القومى سماته : الشعبية – العملية – الاجتماعية – الوحدة..

وكما يقول الكاتب الامريكى اللارتينى بورخيس :

"اذا كان الحلم فرديا فهو أضغاث احلام..

أما اذا كان جماعيا فهو بدء الطريق".

المسئوليات القومية أمام المؤسسة الثقافية المصرية

لاتزعم هذه الرؤية إمتلاك تصور متكامل بديل للواقع، وان كانت فى المقابل انها تنطلق من تماس مع هذ الواقع، وتمتلك كذلك إحاطة لابأس بها بالواقع الثقافى العربى خارج مصر.

برزت مستجدات كثيرة فى الفترة الأخيرة فرضت على المؤسسة الثقافية المصرية إعادة النظر فى وضعها الحالى لتستوعب ماتفرضه هذه المستجدات عليها من مهام ومسئوليات وربما كانت عودة الجامعة العربية الى القاهرة فى مقدمة هذه المستجدات، الى جانب ماتفرضه المتغيرات الدولية المتتابعة، وبخاصة مايخص منها إعادة رسم خريطة العالم بشكل يبدو متعارضا - حتى الآن - مع المصالح العربية، ومايتبع هذه العملية من تأثير على ثقافات العالم الثالث وبلا شطط فى الحكم، أو وقوع فى التعميم فإن العقلية التى تدار بها المؤسسة الثقافية المصرية لاتبدو أنها تستوعب هذه التغيرات، ولم يطرأ عليها مايشير الى إنتباهها الى طبيعة المرحلة الجديدة و التزاماتها.

واذا كانت فى نية هذه المؤسسة التعامل مع مرحلة القطيعة العربية الرسمية - بأداء معين فلا ننتظر منها أن تنجح فى التعاون مع مرحلة العودة والوفاق بالاداء القديم نفسه وبخاصة أنها مصابه بترهل بشكل عام. ولم تعد تمتلك قناعات فكرية تناسب المرحلة الجديدة، بل يبدو انها تتعامل بقناعات

مناخ القطيعة نفسها، خصوصا فى مايتعلق بالاحساس بالمسؤولية القومية وإدراك ما يترتب على انتماء القاهرة إلى محيطها الحيوى القومى من التزامات. وانطلاقا من الفردية السابقة فان تغيير قيادات المؤسسة الثقافية المصرية والاعلامية يبدو كأنه مقدمة ضرورية لنجاح دور مصر الثقافى فى المستقبل القريب ومن اللافت للنظر ان الثقافة المصرية غير الرسمية كانت فى مرحلة القطيعة أكثر وعيا لطبيعة العلاقة بين القاهرة وأمتها العربية وظلت رموز هذه الثقافة محافظة على أفضل مايمكن بذله من جهد بترجمة هذا الوعى. ونال رموز الثقافة "اللامؤسسية" فى مصر بعض الاذى والتشهير نتيجة نضالهم من اجل الدفاع عن عروبة الثقافة المصرية، ورفض محاولات التطبيع الثقافى مع الجهود الصهيونية، ويشهد حوار السبعينيات الشهير حول عروبة مصر، والذى طرح فيه موضوع هوية مصر العربية فى مجال المراجعة وقفة صلبة من المثقفين المصريين لتكريس انتمائهم القومى والدفاع عن هويتهم العربية، وسط مناخ رسمى معاد، ولم تتعد أصوات المثقفين الذين ارتفعت مشككة فى هذا الانماء أصابع اليد الواحدة مقابل أكثر من ثلاثين مثقفا من اهم رموز الثقافة المصرية محولة هذه الأصوات سواء المنادية بحياد مصر (الحكيم – حسين فوزى) أو الرافضة للانتماء القومى العربى من اساسه (لويس عوض) وتمخض هذا الحوار عن انجاز مهم كرس هواية مصر القومية بين قوى المثقفين.

وفيما عدا بعض المحاولات الفردية أو الهشة نجحت القوة الثقافية العربية، خارج مصر، فى الحفاظ على قوى الدفع الحية مع المثقفين المصريين وحاولت

بدورها تحجيم اثار هذه القطيعة وامتصاص الخسائر الناجمة عن المقاطعة السياسية وظل المثقفون المصريون حاضرين فى أغلب المنتدبات والمؤتمرات والدوريات الثقافية العربية كان الطرفان- العربى والمصرى اللا رسمى - على درجة من الوعى تدعو الى الاحترام بالنسبة الى الاحساس بخطورة الموقف ومسؤلياته وبعودة مقر الجامعة العربية الى القاهرة يتضاعف الاحساس بأهمية تغيير بنية المؤسسة الثقافية المصرية لتكون متلائمة مع طبيعة المرحلة الجديدة. إن عودة الجامعة الى القاهرة بحاجة الى دور ثقافى مصرى مختلف، يكون مسانداً للمعطيات السياسية الجديدة، ومعبرا عنها، خاصة أن الخريطة الثقافية العربية الجديدة أختلت عما كان الحال عليه فى أواخر السبعينيات، عندمت تقطعت السبل والجسور الرسمية بين القاهرة والعواصم العربية الأخرى، ومن الملح ان تكون القيادات الثقافية المصرية على وعى بهذه المتغيرات ولم تعد القاهرة تكتب وبيروت تطبع وبقية العواصم العربية تقرأ ولم يعد الأداء الأبداعى والنقدى كما كان الحال عليه منذ عقد مضى، فالخريطة الثقافية العربية وبالاخص فى الخليج والمغرب تبدلت وأصبح هناك واقع ثقافى مغاير - بعض الشئ - لما مضى، اذ برزت مؤسسات ثقافية وظهرت أسماء ابداعية جديدة وطرحت رؤى ثقافية مغايرة تحتاج من القاهرة أن تكون واعية لها.

إن المبدأ الثقافى الجديد الذى يجب أن ترتكز عليه العلاقة هو "التكامل" لا التنافس والصراع، والمطلوب شبيه بعلاقة الروافد المختلفة التى تصبه فى مجرى النهر الكبير وتغذيه على الرغم من اختلاف تضاريسها. وطالما أتهم

المثقف المصرى انه اقليمى متقوقع خصوصا المنتمى الى المؤسسة الثقافية الرسمية. وهو مايجب ان ندفعه عن وجهنا الثقافى ونحرص على الانفتاح على الخريطة الثقافية العربية بكل تضاريسها وتنوعاتها. والمسؤوليات التى تفرضها المرحلة الجديدة تحتاج من المؤسسة الثقافية فى مصر تغييرات من نوع معين، وتبنى صيغ جديدة للعمل الثقافى يتلخص أهمها فى المحاور التالية.

١- اعادة صياغة السياسة الاعلامية بما يعمق الانفتاح على الوطن العربى وقضاياه وهمومه، بحيث تفتح القنوات الاعلامية فى التليفاز والاذاعة والصحافة امام الواقع العربى، انطلاقاً من رؤية قومية واضحة تتوازى مع المسئولية السياسية لمصر كمقر لجامعة الدول العربية.

٢- اعادة النظر فى البنية الحالية لاتحاد الكتاب المصرى كقيادة ورسالة ودور ليحقق اداء افضل إذ أصابه الترهل وتحول الى مجرد جمعيه مهنية اكثر منه تنظيم ثقافيا وسياسيا. ولا يصلح هذا الاتحاد بشكله الحالى لينسجم مع مهام المراحل الجديدة تجاه التزامات مصر القومية وحاجته الى اداء ثقافى عربى اشمل تقف هيئته الحالية دون القيام به.

٣- تعديل اللوائح الجامعية بحيث تسمح بانتداب أساتذة عرب الى الجامعات المصرية ضمن عملية تعاون وتبادل واسعة بين الجامعات المصرية والعربية والتوسع فى اعطاء المنح الدراسية للطلاب فى الجانبين. والاتجاه نحو الاستعانة بالاساتذة العرب - ولو بشكل موسمى مما يحقق اثر مهم فى الحضور الاكاديمى العربى داخل الجامعات المصرية.

٤- زيادة حجم التعاون بين دور النشر الرسمية فى القاهرة والعواصم العربية بما يسمح بالنشر المشترك وتبادل المؤلفات والطبعات الخاصة لتصدر مؤلفات الكتاب العرب فى طرابلس ودمشق وعدن والرباط من هيئة الكتاب المصرية وبالعكس وبتشجيع الكتاب العربى الى مصر.

٥- الاستعانة بمقدمى برامج من الاقطار العربية الشقيقة - فى تلفاز واذاعة مصر كما كان الحال فى الستينيات (عبد الهادى البكار فى الاذاعة ورشا مدينة فى التلفاز) ويمكن أن يتم ذلك بالتبادل بين الطرفين لتحقيق مزيد من الحضور الثقافى فى القاهرة. وتوسيع حجم البرامج العربية فى التلفاز المصرى مع التفكير فى انشاء قناة تليفزيونية عربية مشتركة تبث من القاهرة لتلتقط فى كل العواصم العربية.

٦- إنشاء جائزة ثقافية مصرية تمنح لافضل المبدعين العرب من قبل لجنة مكونة من المثقفين العرب ويتولى رئيس الجمهورية تسليم هذه الجوائز بنفسه ضمن احتفالات توزيع جوائز الدولة التشجيعية والتقديرية كتقليد سنوى جديد (على غرار جائزة الملك فيصل وجائزة صدام).

٧- تنشيط برامج توحيد المقررات التعليمية بالمدارس العربية وانفتاح المقررات المدرسية المصرية بشكل أوسع على الوطن العربى، مع التفكير الجدى فى تكوين مقرر دراسى موحد، وليكن مقرر (المجتمع العربى) بحيث يدرسه كل طالب عربى بلا تغيير مما يساهم فى عملية التربية السياسية لهم.

٨- تشجيع بروتوكولات التعاون الثقافى والاعلامى بين الاجهزة الثقافية والاعلامية المختلفة فى مصر مع نظيرتها العربية (نقابة الصحفيين - اتحاد

الكتاب - النقابات الفنية - نوادى اعضاء هيئة التدريس - الاحزاب) مما يعطى دفعا للعلاقات الثقافية الشعبية فى الاتجاهين.

هذه بعض النقاط الرئيسية فى تلك القضية المعقدة لكن واقعنا الثقافى فى حاجة الى الحوار الديموقراطى الواسع، والنقد الذاتى، والمصارحة بشكل يدعونا الى مواجهة الضعف أكثر منه دفناً للرؤوس فى الرمال والاكتفاء بالفرجة على مايحدث تحت حجة انه ليس فى الامكان ابدع مما كان، وهذه مصلحة مشتركة تقتضيها المستجدات الجديدة فى المنطقة ويقتضيها استعادة مصر دورها الثقافى الريادى فى المنطقة والمنسجم مع معطيات العقد أو العقدين الأخيرين.

رقم الأيداع ١٥٩٣ / ١٩٩٢
I.S.B.N
977 - 208 - 079 - 6





تعريب مصر السياسي

لا يصح فى لغه البحث العلمى أن تشير الى سبب بعينه، أو عامل مؤثر فى تفسير أحداث التحول الكبرى فى حياه الشعوب، بل تتداخل عوامل عدة فى صناعه هذه التحولات، وسوف يجد القارئ فى الفصل الخاص بنقد التفسير الكاريزمى لنمو الحركه القوميه العربيه، تطبيقا لهذه الرؤيه المركبه فيفهم التحولات الكبرى فى مسيره شعبنا . وليست عروبه مصر اختراعا ناصريا و ان ارتبطت باسهاماتها، كما ليست اغتيالا ساداتيا وإن تأثر بارتدادها . على أنه اخطر مايقال فى مسألة عروبة مصر انها ميراث تاريخى معادلة للمستقبل فى نفس الوقت. فإذا أكدت هذه الدراسة على الأهميه القصوى لمناقشه قضية الهويه المصريه، فانها تكرس فى نفس الوقت الايمان بالدور القيادى لمصر، والمسئوليه القوميه لها تجاه تجاوز وضعيه التشرزم والكانتونات والقطريه ومحاوله وضع الأمه العربيه فى موقع ملائم فوق خريطه العالم ودور أقل مايقال عن فعاليته أنه يتجاوز ردود الأفعال إلى المبادرة أو تحجيم ضغوط الحسابات الكونية المتعاظمة.. وثمة معطيات مستجدة تعطى لهذه الدراسة أهميتها منها اعادة رسم خريطة العالم فى اتجاه مضاد لمصالح شعوب العالم الثالث، والتأرجح بين تعددية الأقطاب وهيمنة النظام الرأسمالى، والالتفاف حول مصالح القطيع المتخلف الضعيف

مكتبة مدبولى